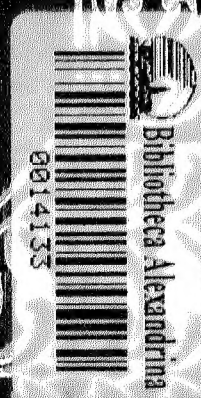


عباس علي الموسوي

الأمير علي عليه السلام
منتهى لكمال البشري

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بغداد - بستان



الامام علي عليه السلام
منتهى الكمال البشري

عباس علي الموسوي

الإمام علي عليه السلام
منتهى الكمال البشري

منشورات

مؤسسة الأعلی للطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الاولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

كلمة لا بدّ منها

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين وبعد :

الإمام علي أمة قائمة برأسها لها ملاحمها الخاصة وصفاتها المميزة ، في أي الميادين جئت تتحدث عنه وجدته أروع إنسان وأكمله على امتداد سلسلة الوجود البشري وسعتها .

إنه البطل الذي حمل السيف بيمينه يدفع به عن رسالة الله ووحى السماء فكم جلى من كرب عن وجه رسول الله ، وكم دفع من أذى المشركين والمنافقين عنه ، وتلك حروبه في بدر وأحد وخيبر ، والأحزاب تنطق وتعرب عن شجاعته وفدائه وقوته وشدة شكيمة ، إنه الفارس الذي ما انهزم في واقعة ولا عثر في موضع بل كان النصر دائماً حليفه واعلام الفتح تحفقه بين يديه .

وإذا جئت تتحدث عنه في ميادين العلم والمعرفة فتأخذك أفكار نهجه ، وما يتضمن من بلاغة وفصاحة إلى القول إنه أفصح الناس بعد رسول الله واعلمهم ، بل جاء باب مدينة علم الرسول وعيبة علمه ، إليه ألفت الشريعة مقاليدها ، فأعطت عن يديه الخيرات والبركات ، فكم من الشبهات قد دفع وكم من المضلات

قد جلى ، وكم من الامور الغامضة والألغاز المعمية قد فتق ، انك إذ تقف أمام كلماتها تجدها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق كما قيل .

وإذا جئت إلى كرمه فهو سيد الكرام وإمام الأسخياء ، قدم نفسه في سبيل الله ، فأُنزل الله فيه : (ومن الناس ^(١) من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ...) وقدم طعامه فأُنزل فيه وفي أهل بيته (ويطعمون الطعام على ^(٢) حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) وتصدق بخاتمته في صلاته ، فأُنزل فيه : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ^(٣)) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .

وإذا جئت إلى عدله فهو الإمام الذي ان قال فصل ، وإن حكم عدل ، تولى الخلافة فأعاد الحق إلى نصابه ، رد المظالم لأصحابها فقسم بالسوية ، وعدل في الرعية حتى قال بعد ان عوتب على التسوية في العطاء : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ، والله لا أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجماً ، ولو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله .

وقد كان عدله أهم الامور التي لم تتحملها الفئة المترفة في عهد من سبقه ، فلذا كان أحد أسباب النعمة عليه ، بل أهم أسبابها التي أخرجت طلحة والزبير وغيرهما لحربه .

وإذا جئت لزهده فإنك تقرأه أزهد الناس وأشدهم نسكاً ، إنك ترسم له صورة الصوفي الذي انقطع عن الدنيا وبات همه في آخرته ومعاده ، فلو قرأت زهدياته أرجفتك خوفاً إذ تقف أمامها على التجسيد الحي والصور المتحركة

(١) البقرة : ٢٠٧ .

(٢) الإنسان : ٧٦ .

(٣) المائدة : ٥٥ .

للنعم والعذاب الأخروي ، إنك تشعر خلال استعراضك لزهدياته ، انه الإنسان الذي ليس له من دنياه صغيرة أو كبيرة ، انه اكتفى من دنياه بطمره ومن طعمه بقرصه ، بل قد طلق الدنيا طلاق من لا رجعة له فيها ولا حنين إليها .

وهكذا لو أتيت على سائر الصفات الأخرى واستعرضتها لوجدت علياً مدرسة قائمة بذاتها ، تجسدت مرة ثم غابت شمسها فلم تطلع من جديد ، فراح الناس تقتبس من ذلك الشعاع الذي تألق فترة من عمر الزمن ، ثم اختفى بعد أن رسم على آفاق السماء خطوطاً عريضة لكل المسلمين الطيبين .

إن هذا التفوق الباهر والمثل الكامل الذي حل في شخصية الإمام هو الذي قادمة من الناس وأخذ باعناقهم للقول بإمامته وتفضيله على سائر المسلمين .

ان الشيعة لم تأخذ علياً إماماً لأجل هوى يدفعها لذلك أو انحراف في السلوك أو خطأ في التفكير ، بل ان قيام الأدلة بكافة أنواعها من نقلية وعقلية ، وما اجتمع فيه من صفات ذاتية وأخرى اكتسابية جعلته أفضل الخلف بعد رسول الله ﷺ ، كل ذلك هو الذي دفع الشيعة للقول بإمامة علي وأولاده الأحد عشر .

ولقد ذاق الشيعة خلال التاريخ أشد العذاب وأعظم التنكيل فقتلوا وشردوا وعذبوا وطوردوا حتى لم يعودوا يأمنوا على دماءهم وأعراضهم ، فقد كان الكفر بنظر الأمويين واضرابهم من المجرمين أهون عليهم من الشيعة المسلمين .

ومع ذلك كله بقي الوفاء للمبدأ والعقيدة والفكرة الحققة ، ألا وهي إمامة علي وتفضيله أهم وأعظم من جميع الدماء والاشلاء ، فلذا هانت التضحيات دون التضحية بإمامة علي ، فلم يلوا أعناقهم لحاكم جائر ولم يلوا قيادهم لمنحرف ، بل كان الولاء لعلي وأهل بيته عليه يحيون ، ومن أجله يموتون شهداء شرفاء أعزة كرماء .

وقد عرف كثير من الناس ان الحق مع علي وعلي مع الحق تصديقاً لرسول الله وللحقيقة البيضاء ، ولكن خوفاً من الحكم لم يجهروا بالحق ، فكانوا جنباء المواقف

منهم من ضعفاء ، فقد سأل أبان بن عياش للحسن البصري عن علي ، فقال : ما أقول فيه : كانت له السابقة والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصحة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقراءة ، إن علياً كان في أمره علياً ، رحم الله علياً وصلى عليه .

فقلت يا أبا سعيد أتقول (صلى عليه) لغير النبي ؟ فقال : ترحم على المسلمين إذا ذكروا وصل على النبي وآله وعلي خير آلهم ، فقلت : أمو خير من حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخير من فاطمة وابنها ؟ قال : نعم والله إنه خير آل محمد كلهم ، ومن يشك إنه خير منهما ، وقد قال رسول الله ﷺ (وأبوها خير منها) ولم يحجر عليه اسم شرك ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله ﷺ (وأبوها لفاطمة عليها السلام : (زوجتك خير امتي) فلو كان في أمته خير منه لاستثناه ولقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فأخى بين علي ونفسه ، فرسول الله ﷺ خير الناس نفساً وخيرهم أخاً ، فقلت : يا أبا سعيد فما هذا الذي يقال عنك إنك قلت في علي : (كان يقال أنه منحرف عن الإمام) .

فقال : يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لثالت بي الحشب .

هذا نموذج من عرف علياً ، ولكنه لم يحجراً أن يعلن عن موقفه ، فكان يستره لبعض أصحابه ، ولكن غيره لم ترهبه السيوف وبريقها ، بل كانت عنده أتفه من أن يحسب لها حساب إذا تعارضت حياته مع مبدئه والنور الذي آمن به .

إن هذه الصفات الكريمة التي اجتمعت في علي بدليل الاستقراء ، نكتشف بها إمامته ، إذ لم تكن مجرد صدف تتوافق وتلتقي في شخص واحد ، فإن بعض الناس ينفرد بالعلم ، وبعضهم الآخر ينفرد بالشجاعة ، وثالث ينفرد بصفة أخرى ، وهكذا تنقسم مجموعة الناس بمجموع الصفات ، فيأخذ كل واحد منهم بطرف منها ، ولكن علياً كان ملتقى لجميع الصفات والجمع لكل الكالات ، وهذا بنفسه دليل إمامته .

وهذه جولات مع بعض صفات علي وكمالاته نستعرضها باقتضاب كي نجسّد
الولاء له، ونعيد لأنفسنا الحياة من جديد باتخاذ علي إماماً وقائداً وملمماً نتخذ
وأهل بيته الأئمة الطاهرين ، ونرفض كل الأصنام والأوثان التي طرحت كبدايل
عنه قديماً أو حديثاً كي نحقق طموحاتنا الإسلامية المنشودة ، فإلى الحديث عنه
وإلى الله المرجع والمصير .

النبى شيت في غرة رمضان سنة ١٣٩٩ هـ
عباس علي الموسوي

رييب النبي ﷺ

هذه هي الأيام الاولى من حياة علي عليه السلام ، وهل تكون كأيام غيره من الأطفال ، حيث ينشأون في بيوت آبائهم تكلؤهم أردان الابوة ويظلمهم عطف الامومة ، وينعمون بما ينعم به الأبناء من رعاية وعطف وحنان وتربية وإحسان ، حيث يحاول الأب تنشئة أبنائه على أخلاقه وعاداته وتقاليده وانفتاحاته ؟ ..

فإن الآباء عادةً يعمدون وجودهم ويحددون حياتهم بحياة أبنائهم ، إذ هم الامتداد الطبيعي للآباء ، وبهم يعيش الأهل حياة جديدة بعد رحيلهم عن عالم الأرض والفناء .

فهل نال علي شيئاً من تربية أهله ؟ وأهله في المرتقى العالي والسنام الرفيع ، وبيته من أشرف البيوت وأعزها ، فأبوه شيخ الأباطح وسيد قریش ، إليه انتهت الزعامة وبيده مفاتيح الحل والعقد ، وقد كان هذا الشيخ الكبير على جانب عظيم من المكانة والقدسية وعلو النفس والإباء والهمة .

فهل يكتب لعلي أن يمشي على خطى والده ويتخلق بأخلاقه ويتمص شخصيته ونفسيته ، أم إن أمامه غيره ؟

ومن يكون يا ترى ذلك الإنسان الذي يتقدم على أبي طالب فضلاً وسمواً وقدرأ ؟ وكيف الوصول إليه وعلي لما يزل طفلاً لم ينمو عوده وهو بعد في مهد أيامه ؟

نعم هناك أعظم ولد آدم دون استثناء ، أكرمهم نفساً وأحسنهم أخلاقاً وأفضلهم عملاً ، هناك غرسة ربانية تعهدتها يد الله فصاغتها كما أرادت وأحببت ، رسولاً نبياً .

إنه محمد بن عبد الله سيد البشر .

إن هذا الوجه الكريم ليس غريباً عن علي ولا بعيداً عنه ، إنه محمد نفسه الذي تعهده والد الإمام قريباً في بيته وتكفله في صغره وحافظ عليه بحمده ولم يفارقه في حياته ، ولكن محمداً قد تزوج وانتقل إلى بيته الجديد ، وعلي ليس وحيد أهله بل إن له أخوة ، فكيف يكتب لهذا الطفل أن يعيش في بيت محمد ؟ ومن أي الأبواب يستطيع الدخول إلى الحضان الحنون ، حضان النبوة ومرتع الملائكة والمثل العليا ؟

كيف ينفرد من بين إخوته كي يعيش في كنف النبوة الطاهرة والإنسانية الرفيعة ، فيتسلم عطر الحق والعدالة فيولد مسلماً كأرفع إنسان تصوغه يد النبوة ويخلقه الإسلام كما أراد هذا الدين وأحب .

ليس الصدف - كما يملها العاجزون - هي التي تلعب دورها في هذا المجال ، ولا الحظ - كما يقول آخرون - هو الذي يخطط طريق الإنسان من سعادة أو شقاء ، بل هناك يد خلفية خفية هي يد الله وعنايته بهذا الإنسان الذي سوف يكون الامتداد الطبيعي للنبوة ، حينما تكمل مسيرة التبليغ في الدنيا وتمتضي أيامها وترتحل إلى الرفيق الأعلى .

نعم إن هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاص في مدرسة خاصة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم ، فكان الإسلام مدرسة علي وكان محمد معلمه ومربيه ، فنهض أن يفتح عينيه للنور رأى نور محمد ، ومنذ عرف الكمال عرفه في محمد وتعاليمه السامية .

لقد كتب الله لهذا الطفل أن ينتقل إلى بيت محمد ، يقول صاحب مستدرك الصحيحين :

كان من نعم الله على علي بن أبي طالب عليه السلام ما صنع الله وأراد به من الخير . إن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب في عيال كثيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعنه العباس - وكان من أيسر بني هاشم - : يا أبا الفضل إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه نخفف عنه من عياله ، آخذ أنا من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلها عنه .

فقال العباس : نعم .

وانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتا لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً فضمّه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ فضمه إليه ، فلم يزل علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعثه الله نبياً ، فاتبعه علي وصدقّه ، وأخذ العباس جعفرأ ، ولم يزل جعفر مع العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

هكذا أراد الله أن ينضم علي إلى أسرة محمد فيكون تحت رعايته ويعيش في حجره ، يتنسم عطر النبوة ويشم عرف الرسالة ويتبعه في كل أفعاله وأعماله وخصائصه ومميزاته ، حتى أضحي ظل النبي الذي لا يفارقه وربيبه الذي ورثه في جميع خصاله النفسية والإسلامية ، وهذا ما أفصح عنه علي نفسه في بعض كلماته ، حيث قال :

وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني إلى فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداء به ، ولقد كنت يجاور في كل سنة بجراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في

الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثها ، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة .

هذا هو علي يستقر في بيت محمد فيرعاه النبي بحنانه ورحمته فيسقيه الإسلام قطرة قطرة ويغرس في نفسه أحكامه حكماً حكماً ، كيف يكون حال التلميذ الذكي الألمي مع معلم قدير يحرص على تثقيفه وبنائه ؟ كيف ينظر الطفل إلى مثله المعين فيحاول تقليده .

لقد كان علي يرى في محمد المثل الكامل الذي يشبع تطلعاته وعبرياته ، فجاء صورة طبق الأصل عن محمد .

أرادته النبي شجاعاً فجاء أشجع الناس ، وأرادته سخيّاً فكان أسخاهم ، وأرادته زاهداً فكان من أزهد البشر ، وأرادته عالماً فأثنى باب مدينة علم محمد ، وأرادته .. وأرادته .. فجاء كما أرادته .

هكذا صنع محمد علياً كما أراد وأحب ، وكما للمعلم من أثر في نفس تلميذه ، وكما من كلمة صدرت عن استاذ فأبدلت حياة التلميذ وقلبته رأساً على عقب ، وكثير منا انغرس في نفسه تربية استاذة ، وكثير منا اتخذ بعض أساتذته قدوة له ، مع أن فترة مرافقة الاستاذ لتلميذه عادة قصيرة وبضاعة قليلة ، فإذا كانت هذه هي حالتنا نحن مع أساتذتنا ، فكيف بمن يعيش مع استاذ طفولته ومهد صباه ؟ لا بد وأن يحمل كل معطيات استاذة في كبره ، فيحمل التربية النفسية لاستاذة وأخلاقه .. وهكذا حمل علي كل صفات محمد .

وجاء الإسلام فكان علي مسلماً قبل قدومه ، إذ إن محمداً كان قبل البعثة كما أراد الله ، فهو المعصوم منذ ولادته ، المترفع عن الدنيا قبل تنبؤه ، الممثل لأمر ربه في عباداته ومعاملاته وأخلاقه ، وكان بدوره يقوم بصقل نفس الإمام علي وتهذيبها وجعلها المرآة الصافية التي يعكس عليها تشريع السماء بأصفى ما يكون وأنقى ما يتصور ، فلم ينفذ إلى مسارب نفس الإمام أي شعاع من شرك أو

سجود لصنم ، فهو المولود على الفطرة المخلوق على الإسلام منذ أول يوم فتح عينيه على النور ، فلذا عندما جاء الإسلام بعد ذلك وهبطت رسالة الله على قلب محمد كان علي أول الرواد والطلبة السابقة إلى الإيمان برسالته ونبوته ، فهو يرصد حركات النبي ويقتدي به قبل بعثته ، فكيف وقد جاء الناموس من عند الله ؟ فكان أمراً طبيعياً أن يكون علي أول المستجيبين له المؤمنين به ، وبهذا تسقط كل أقوال المعارضة والمقارنة بينه وبين أبي بكر ، وأن أيها كانت إسلامه قبل الآخر .

من الظلم أن يكون هناك خلاف أو اختلاف في مسألة من يكون أول المؤمنين بالنبي ، وأين كان أبو بكر ؟ وما هي تربيته ؟ وعلى أي شيء نمسا عوده وشب قوامه ؟ هل على غير اللات والعزى وعبادة الأصنام والأوثان ؟ وكيف يقارن مثل هذا بمن ولد على الإسلام ولم يسجد لصنم قط ؟ لقد قضى أبو بكر شطراً كبيراً من عمره وانغرس في نفسه بذور الشرك وعادات الجاهلية ، وعندما جاء الإسلام عرض عليه فأسلم ، وأين هذا ممن تربى في مهبط الوحي والتنزيل على عين الرسول الأمين ؟ ..

ولا يلام أبو بكر في تربيته أو يؤخذ في نشأته ، فقد كانت المجتمع بأسره يعيش تلك العادات والشعائر ، إلا ما استثنى ممن اهتموا بفطرتهم ، وكانوا يسمون الحنفاء .

نعم لا يؤخذ أبو بكر على شيء مما مضى ، ولكن تلك العادات القديمة والاصول النفسية التي شب عليها وشاب لا يمكن محوها تماماً واستئصالها كاملاً ، بل تبقى جذورها في أعماق النفس واللاشعور تتحين الفرص للظهور ، وفي بعض اللحظات قد يضعف المرء فتشده رواسته القديمة وتحن نفسه إلى ما كان عليه ، وهذا شيء معاش بالوجدان مدرك لكل واحد .

إننا نتذكر الماضي عند مرور ما يشبهه أمامنا ، وإن ذلك الفقيه الذي أصبح في رتبة عالية وبقيت نفسه تحن إلى أن يكسر قطعة الفخار تحت قدميه ليسمع

صوتها تدلل على ذلك ، وهذا هو الخليفة الأول يدرك ذلك ويحسُّ به بوجوده ، ولذا أعلن عن ذلك وأفصح ، حيث قال : أيها الناس ، إني وليت أمركم ولست^(١) بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ! إن لي شيطاناً يعتريني ، فإياكم وإياي إذا غضبت ، لا أوثر في إشعاركم وإبشاركم .

إن هذا الشيطان هو تلك العادات التي شبَّ عليها وشاب ، إنه يخاف أن تنازعه نفسه أو يطغى عليه هواه ، وشتان بين هذا وبين من فتح عينيه على الإسلام فرأى نور النبوة يشع من بيته ، فيغدق عليه فيوضاته النبوية ويقضيه من قعالم الإسلام وأحكامه ، ولم يكن للجاهلية وعاداتها فيه أي نصيب ، إنه التبر الصافي والجوهر الذي عزَّ نظيره .

لقد كان لتربية علي عليه السلام على يد النبي ﷺ عظيم الأثر في حياة الإمام ، إذ جاء كما أراد الله وأحب ، فقد زرع النبي الإيمان في نفس علي قطرة قطرة منذ طفولته ، حتى أصبح الإيمان بالله ورسوله وبالإسلام هو كل شيء في حياته ، فلا يتحرك إلا عن هذا الإيمان ولا يقف إلا للحفاظ على هذا الإسلام ، فجميع تصرفاته خاضعة لميزان واحد هو رضى الله والحفاظ على هذا الدين ، وقد كان المنطلق لجميع تصرفاته هو هذا الإيمان القوي الذي بلغ الإمام منه مرتبة لا يصل إليها أحد من الناس ، فهو صلوات الله عليه يفصح عن ذلك بقوله : « لو كشف لي الغطاء لما ازددت يقيناً » . إنها مرتبة من الوصول لا تزاد ولا تزيد ، إنه اليقين المطلق الذي تقف دونه البراهين والأدلة عاجزة عن أن توصل الإنسان إليه ، إنها مرتبة من اليقين تمثل الرقم القياسي في عالم الإيمان ، فإليها ينتهي العدُّ دون أن يصل أحد إليها .

وقد جاء ذلك على لسان النبي ﷺ تقييماً عادلاً كاشفاً عن كبر هذا الإيمان وعمقه ، فقد ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال : أشهد على رسول الله ﷺ

(١) ابن أبي الحديد ، ج ٦ ص ٢٠ .

لسماعته^(١) وهو يقول : « لو أن السماوات السبع وضعت في كفة ، ووضع إيمان علي في كفة لرجح إيمان علي » .

وقد ورد عن ابن عمر هذا المضمون عن رسول الله ﷺ : « لو أن السماوات والأرض موضوعة في كفة ، وإيمان علي عليه السلام في كفة لرجح إيمان علي » .

شهادة من رسول السماء بإيمان علي بهذا التقييم الرائع الذي ليس هناك وزن أكبر منه ، ليعبر النبي عنه ويأتي ليضعه في كفة الميزان ، إنه إيمان علي الكبير الكبير الذي يعجز اللسان عن تقديره .

وأي هذا من إيمان سائر المسلمين الذين انحدروا في أوقات ماضية مع الجاهلية فأثرت على إيمانهم حتى بعد الإسلام ؟ .. فلذا نرى عمر بن الخطاب لما جرى صلح الحديبية والتأم الأمر ، أتى إلى رسول الله ﷺ قائلاً :

ألست برسول الله ؟!

قال : بلى .

قال : أولسنا بالمسلمين ؟

قال : بلى .

قال : أوليسوا بالمشركين ؟

قال : بلى .

قال : فعلام تعطني الدنية^(٢) في ديننا ؟

قال ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني .

قال : فكان عمر يقول : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

(١) الرياض النضرة ، ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) الطبري ، حوادث سنة ٦ .

إنك تجد في هذا الحوار أن نفس ابن الخطاب قد خامرها الشك في رسالة محمد ﷺ ، فلذا عمدت إلى هذه الاستفهامات المتكررة ، ثم أعقبتها بالصلاة والصيام والعقن حتى رجا خيراً .

وقد مرّ بنا أيضاً ما قاله أبو بكر : إن لي شيطاناً يعتريني .

أما عثمان فدعه ولا تتحدث عنه ، فيكفيه فراره يوم أحد ، حيث قال النبي ﷺ له ولمن فرّ معه : « لقد ذهبتم بها عريضة » .. وسيأتي بيسان ذلك عند ذكر هذه الغزوة .

فإذا كانت هذه هي نفوس الطليعة السابقة إلى الإسلام ، وقد اضطربت في بعض الأحيان وشككت في حين آخر ، فإنما كان ذلك نتيجة طبيعية لما شبت عليه من انحراف في عهد جاهليتها الأولى ، بحيث أصبح من العسير أن يجتث الإسلام جذور تلك العادات القبيحة التي تأصلت ، حتى إذا وجدت منفذاً مدتّ رأسها وخرجت معلنة عن وجودها .

وإذا كان الأمر كذلك ، فمن يضمن لمسيرة الخلافة أن تسير بسلام في طريق الإسلام السوي ، وتمتدّ رسالة محمد ﷺ وتشريعاته قانوناً يتحكم في كل شيء ، حتى لو خالف الهوى والميول الشخصية ؟

ومن يضمن عدم انحراف القيادة ، إذا شبت فيها بعض تلك العادات الجاهلية ؟

ومن هو الذي يقف في وجهها ، إذا كانت تحرّكها تلك الجذور النفسية التي كانت في أيام جاهليتها بعيدة عن الإسلام غريبة عن الإيمان ؟

ومن الضامن للمسيرة أن تبقى ضمن الإطار الإسلامي العام ، إذا كانت قيادتها بهذه النفسية وهذه الروح ؟

من جرّاء ذلك كله .. نرى كيف وقع الخلفاء في كثير من الخطأ والانحراف ،

فخالف بعضهم بعضاً مع أنهم عاشوا في عصر النبوة الزاهر ، ونرى سيرة كل منهم تخالف سيرة الآخر .

وأين هذا من تربى على تعاليم الإسلام ، فلم يكن له من عادات الجاهلية وتقاليدها أي أثر أو صلة ، بل كان خالياً من كل أدرانها وأحقادها ، بل كان مساهماً قرآنياً ترجم تعاليم الإسلام وتشريعاته وآدابه ، فجاء امتداداً طبيعياً للنبوة وظلاً ثابتاً لها ، يحفظ حدودها وأوامرها ، معصوماً عن كل انحراف ، مأموناً من كل خطأ ، ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ .

الفصل الأول

في شجاعة الامام

مقتطفات من كلام الإمام

نجدة وشجاعة وانس بالموت مفردات صاغها علي فلازمه وجوده، وجاءت كما أحب الله لأعز عباده، ثم أحاطت به ظروف قاسية وقفت في طريقه فنفسها أنات تجرح القلب وتدمي الفؤاد .

١ - قال عليه السلام :

ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) ^(١) إني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط ، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتاخر الاقدام نجدة أكرمني الله بها .

٢ - وقال عليه السلام : فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت ، هيهات بعد اللتيا والتي ، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بشدي امه .

٣ - وله عليه السلام : حتى قالت قريش : ان ابن أبي طالب ^(٢) رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها

(١) ابن أبي الحديد ج ١٠ ص ١٧٩ .

(٢) » » » ج ٢ ص ٧٥ .

مقاماً مني ! لقد نهضت فيها ، وما بلغت العشرين ، وها أناذا قد ذرقت على
الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

٤ - وله عليه السلام : ان اكرم الموت القتل ^(١) والذي نفس ابن أبي طالب بيده
لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله .

٥ - وله عليه السلام : والله لو تظاهرت ^(٢) العرب على قتالي لما وليت عنها ، ولو
أمكنت القرص من رقابها لساغت إليها .

٦ - وله عليه السلام : إني والله ^(٣) لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها ما
باليت ولا استوحشت ، وإني من ضلّهم الذي هم فيه ، والهدى الذي أنا عليه
لعلّي بصيرة من نفسي ويقين من ربي ، وإني إلى لقاء الله لمشتاق ولحسن ثوابه
لمنتظر راج .

٧ - وقال عليه السلام : ومن العجب ^(٤) بعثتهم إليّ أن أبرز للطعان ، وان
أصبر للجلاد . هبّلتهم الهبول ، لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب
وإني لعلّي يقين من ربي وغير شبهة من ديني .

(١) ابن أبي الحديد ج ٤ ص ١٢ .

(٢) » » ج ٧ ص ٢٨٩ .

(٣) » » ج ١٧ ص ٢٢٥ .

(٤) » » ج ١ ص ٣٠٣ .

ليلة الفداء

بزغ فجر الإسلام في أحضان مكة ، وأخذ نور الإيمان يخترق القلوب المظلمة لينيرها بتعاليم الله وهدية ، وأخذت هذه النفوس الطيبة تدخل في هذا الدين لتمثل الرعيل الأول من حماة هذه الرسالة ، والبذرة الطيبة التي سوف تعطي كل ما تملك في سبيل الله ، أخذ أنصار الرسالة يزدادون يوماً فيوماً ، وهنا أحسّت قريش بالخطر يتهددها ، ولم يكن العدد هو الذي يشكل الخطر على الجاهلية ، بل هناك تعاليم هذه الرسالة التي تصوغ الفرد صياغة جديدة ، وتنقذه من جميع رواسبه الماضية لتخلق منه إنساناً يحمل رسالة مملوءة حيوية ونشاطاً ، رسالة فيها وحدها يمكن الخطر على الطواغيت والانحراف ، وما تحمله الجاهلية من اسفاف في الفكر والعادات القبيحة .

أخذت قريش تفتن المسلمين عن دينهم ، فلم يجدوا عجزت أخذت في تعذيبهم واضطهادهم حتى استشهد على أيدي الطفلة والعتاة عدد من المسلمين المستضعفين الذين لا يملكون قوة يرجعون إليها ، فتحميمهم من أيدي الجلادين وسياطهم ، فلذا كانوا يفرّون من قريش وجبروتها ، فيتركون أوطانهم إلى حيث يجدون ملجأ يأوون إليه ويطمئنون إلى عقيدتهم في جواره ، وهذا ما حداهم إلى الهجرة فراراً بدينهم ، حيث لا حول لهم ولا قوة في دفع أذى قريش واضطهادها ، ولكن مع هذا الفرار وتلك الهجرة كانت القيادة الإسلامية المتمثلة بالنبي ﷺ

لا تزال تقف مشعلاً للهداية ، تبلغ رسالة الله طالما احتملت وصول شعاع الإيمان إلى قلوبهم ، لم يزل النبي في مكة مهد هذه الرسالة ومنطلق هذا النور بالرغم من هجرة أصحابه إلى البلد الذي يحتضن هذه الفكرة ، ويتبنى هذه الدعوة .

هاجر المسلمون من مكة تاركين أموالهم وديارهم فراراً بدينهم وصوناً لعقيدتهم .

فهل يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة ؟ أم أنه يقابل قريشاً وجهاً لوجه ويتحداها - كما كان - بفردته وهي جموع متكثرة قد اتحدت كلمتها واجتمعت فكرتها عليه وعلى مناهضته .

وما هو موقف قريش من رسول الله ، هل تسمح له بالسفر والهجرة ، أم تقف في طريقه تمنعه من الوصول إلى أصحابه الذين آمنوا به وبرسالته .

هل تترك قريش رسول الله يجمع أصحابه في مهاجره ، فيعيد لها عليهم حرباً تمنعهم من الرقاد ، ويسدد إليهم الضربات القاسية التي يضطرون أمامها إلى الإيمان بدينه كرهاً واضطراً .

لا .. لن تترك قريش يهاجر وفيها عين تطرف ، إنها تفكر في الخلاص منه والقضاء عليه دون أن تتحمل تبعه ذلك قبيلة بعينها أو جهة بفردتها على قريش أن تفكر في مشكلة هي من أهم المشاكل ألا وهي : الخلاص من محمد .

فأين اجتمعت ؟

وبن اجتمعت ؟

وما هي الفكرة التي توصلت إليها في حل هذه المشكلة ؟

وما هو موقف رسول الله وابن عمه علي بن أبي طالب الذي بعد لم يفارقه

فهو إلى جنبه ؟

هنا تأتي صورة قاتمة للضلال واجتماعه للقضاء على الحق واتباعه .

هنا ترسم طريقة الموت بشكل لم يسبق لها مثيل ، فيتدخل إبليس بذاته للموافقة عليها ، وتسديدها وتبريكها بعد أن يرفض عدة حلول قد طرحت فيمنقضيها ويستقنه من جاء بها ، فإذا أردنا أن نعرف مكان الاجتماع ، ومن هم المجتمعون وما توصلوا إليه في ختام مشاورتهم ، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ وهو يقول : لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعه وأصحابه من غيرهم يغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع أن يلحق بهم لحريهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه ، ولما اجتمعوا كذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها ، قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي أتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأي ونصح .

قالوا : أجل فادخل فدخل معهم ، وقد اجتمع فيها أشرف قريش كلها من كل قبيلة .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان أمره ما قد كان وما قد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بن قد اتبعه من غيرنا ، فاجمعوا فيه رأياً فتشاوروا .

ثم قال قائل منهم : أحبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله زهيراً والناطقة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لو حبستموه - كما تقولون - لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلاوشكوا أن يشبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم .

ثم تشاوروا فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقته وغلخته على قلوب الرجال بما أتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد أديروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد !
قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدأ نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، ورضوا منسا بالعقل (الدية) ففعلناه لهم .

فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأي لكم غيره وتفرق القوم على ذلك .

لقد اجتمعت كلمتهم وتوحدت على قتل محمد ، لم يخالف أحد في هذا الرأي لقد وافق عليه حتى إبليس ذاته ، واجتمعت أصابع المؤامرة لتقضي على محمد ، إنها اتفقت على تنفيذ الخطة ليلاً ، فإن فحمة الدجى تسترق قبج الجريمة ، هكذا ظنوا وحسبوا ، وهكذا قادتهم الأفكار الجهنمية وتخيلات الباطل والضلال .

ضربة رجل واحد بسيفهم جميعاً ، فيموت ويتفرق دمه بين القبائل فتعجز بنو عبد مناف عن الأخذ بثأره ، فتقبل الدية وتنتهي المشكلة التي أفلقت

مضاجعهم وأسهرت عيونهم مشكلة محمد ودعوته .

وعلم رسول الله بالخبر ، وما اجتمعت عليه قريش من بغى وعدوان في إهدار دمه وقتله .

فما هو الموقف وما المخرج ؟

إنها النهاية ، فلا بدّ لها من فداء ، إما أن يقتل محمد ، وبذلك تنتهي الرسالة وينتهي دور الإسلام الذي جاء لإنقاذ الناس وهدايتهم ، أو يقدم قرباناً بديلاً عنه مهما كان غالياً ، وقيمتها عظيمة من أجل الإسلام ونبيه .

وإذا كان الأمر يتطلب قرباناً ، فمن هو الذي تطاوعه نفسه ويوطنها للملافة السيف ، فيدعها طعمة هينة بين أيدي الذئاب الكاسرة ؟

نعم لقد وجد الفدائي الذي علم العالم الفداء ورسم لهم الدرب بأجلى صورته وأحسنها .

أنه مأزق لا "يحل" إلا أن يقدم ابن أبي طالب نفسه طعمة لسيوف الجاهلية ، وإذا نجا النبي ، وكان ذلك مدعاة لسلامته ، فما أطيب الموت بظبا السيوف من أجل محمد والحفاظ على بقاء الإسلام .

وأمر محمد علياً أن يتّشح ببرده الحضرمي وينام على فراشه ليؤمهم قريشاً أن محمداً لا يزال في مضجعه ، وفي تلك الساعات يخرج النبي مغادراً مكة قاصداً يثرب دار الهجرة وبلد الأمان ومحط الرحال ، واتشح علي ببرد النبي ينتظر السيوف المشرعة والفتيان الشداد الذين سوف ينفذون جريمتهم عن سابق عزم وتصميم وإصرار وعناد ، ولكن للنفس اطمئنان وللقلب ارتياح وللروح سكينه إذا كان ذلك يؤمن سلامة محمد ويحفظ حياته .

اضطجع علي على فراش رسول الله ليقيم بنفسه ويفديه بروحه ، وتحلقت فتيان قريش وضربت حوله سوراً تريد القضاء عليه والإنهاء منه ، وإذا تفاجأ

أنه علي وليس محمداً ، فيقع ما في أيديها وتسقط أوراقها التي راهنت عليها
فخسرتها خسارة فادحة لم تتصورها ولم تمر في مخيلتها .

لقد اكلت نفوسها الحسرة وملأ الغيظ جوانحها ، وتمنت أن يقع محمد تحت
ظلال سيوفها لتؤدي المهمة التي انتدبت من أجلها ، لقد تبين ان خطتها قد
فشلت ، وأن محمداً قد نجح .

هذا هو علي في أروع صور البطولة والفداء ، يقدم نفسه من أجل محمد ، من
أجل الإسلام الذي يحمله محمد ، فأى شجاع يوطن نفسه هذا التوطين ، يوطنها
لتمزقها الأسنة والسيوف ، وأين هذا ممن هو في مكان أمين لم يكن هدفاً للقتل
ولا مقصداً له .

إن مبيت علي على فراش النبي يشبه أنه الشجاع الذي لا يصل إلى كعبه
الشجعان ، فقد نزل فيه من الله قوله تعالى : (ومن الناس ^(١) من يشري نفسه
ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد) .

فقد أجمع المفسرون أنها نزلت في علي ليلة المبيت على الفراش ، فقد روى
الشملي في تفسيره : أن النبي ﷺ لما أراد الهجرة إلى المدينة ، خلف علي بن
أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وأداء الودائع التي كانت عنده ، وأمره ليلة خرج
إلى الغار ، وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه ، وقال له : أتشع
ببردي الحضرمي الأخضر ونم على فراشي ، فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن
شاء الله تعالى ، ففعل ذلك علي عليه السلام ، فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل
إني أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه
بالحياة ، فاختر كلاهما الحياة ، فأوحى الله تعالى إليهما : أفلا كنتم مثل علي بن
أبي طالب ، أخيت بينه وبين محمد ، فبات علي فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ،
أهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فنزلا ، فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل

(١) البقرة : ٢٠٧ .

عند رجليه ، وجبرائيل ينادي : بخ بخ من مثلك يا علي ؟ يباهي الله تبارك
وتعالى بك الملائكة .

فمضافاً إلى تلك الشجاعة التي يثبتها المبيت ، فهناك مؤشرات يمكن أن
نستفيد منها من ذلك ، وهي أن علياً هو الخلف الطبيعي للنبي بعد ارتحاله عن دار
الفناء ، فكان مبيت علي رمز للامة وإشارة كي تتخذة إماماً إن فقدت النبي من
بينها ، وأن تتمسك به لأنه الإنسان الذي يحل محل النبي ، وبه يكمل الإسلام
الشروط حتى تتم مقاصده وتقوى فروعه .

دور الإمام علي عليه السلام في معركة بدر الكبرى

خابت قريش فيما تعاقدت عليه من قتل النبي ﷺ ، وضلّ سعيها فيما أمّلت
من نجاح خطتها التي رسمتها للقضاء عليه .

لقد نجح محمد في هجرته وانتصر على الشرك بترك مكة ليؤسس دولته
الجديدة في المدينة ، وها هو يستقر في مهجره مع الشلة الطيبة التي هاجرت معه
والأخرى التي استقبلته .

لقد ارتحل محمد عن وطنه ، بعد أن عذبت قريش أتباعه وأذاقتهم حرّ
الحديد والنار .

لقد فارق محمد وأتباعه وطنهم ، وللوطن لوعة إذا فارقه أبناؤه ، خصوصاً
إذا كان فراقهم له عن كره واضطرار .

استقر المقام للمهاجرين في المدينة ، ولكنهم بتوجيه من القيادة النبوية أخذوا
يتربصون لقريش ليفجعوها بأموالها وليشعروها أنهم أصبحوا قوة تهدد مصالحها
وتتحدّها في ممتلكاتها ، ولن تتركها تفعل كما يحلو لها .

كانت قريش تعتمد رحلة الصيف إلى الشام ، فترقب المسلمون هذه القافلة
العائدة منها المحملة بما تحتاجه الجزيرة العربية وما يحلو لتجارها ، ترقبها المسلمون

للاستيلاء عليها ، ردّاً ولو لبعض مسا فقدوه في مكة وتركوه من ديار وعقار ، وإشعاراً القرشيين بأن الذين أخرجوا بالأمس من بين أظهرهم قد أصبحوا قوة تقف في وجوههم وإن تركهم بحال .. لكن أبا سفيان رئيس القافلة حادّ عن الطريق وتنكّب عنها ، بعد أن وصلت إليه الأنباء عن عزم المسلمين على التصدي للقافلة .

وسمعت قريش أيضاً بنوايا المسلمين وأنهم تعرّضوا لقافلتهم ، فجمعوا جموعهم ووحّدوا صفوفهم لتأديب هذه الجماعة التي تريد أن تنقضّ على أموالهم وتنقضّ عليهم أمن رحلتهم .

لقد هاجت قريش وعظم الأمر عليها وأخذت تتحدث مع نفسها وتتناقل الحديث بينها : إن محمداً وأنصاره الضعفاء الذين ارتحلوا عن مكة يريدون أن يقفوا في وجه قريش وجبروتها؟! يريدون أن يتحدّوا عنفوان مكة وأبطالها؟! لا .. لن تمر محاولة المسلمين تلك دون عقوبة ، ولن تترك قريش محمداً وشأنه بعد الآن يتصرف كما يحب ويشاء ، إن هذا شيء يسّ شرف قريش ويحطّ من كرامتها ، وتسقط قيمتها الاجتماعية عند العرب إذا سمعت أن محمداً قد تعرّض لقافلتها وهي لم تؤدّب به .

لا .. لن تمر محاولة المسلمين تلك دون عقوبة ، ولن تترك قريش محمداً وشأنه بعد الآن يتصرف كما يحب ويشاء ، إن هذا شيء يسّ شرف قريش ويحطّ من كرامتها ، وتسقط قيمتها الاجتماعية عند العرب إذا سمعت أن محمداً قد تعرّض لقافلتها وهي لم تؤدّب به .

إذن فليسمع النفير كل أبناء البطحاء ولتخرج أفلاذ مكة وأكبادها إلى حيث اعترض محمد القافلة ، ولتضربه وأصحابه ضربة واحدة تقضي عليهم وتؤدّب من تسوّل له نفسه يوماً ما اعترض قريش في تجارتها أو أمر من أمورها .

تأهبت مكة ، فجمعت شبانها وشيبيها حتى بلغ عدد من انضوى تحت لوائها تسعمائة رجل أو يزيدون خمسين ، بينما المسلمون لا يزيد عددهم على الثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وقد خرجوا دون توقع لقتال بل لأخذ قافلة عزلاء تريد المرور ، فهم لم يكونوا على استعداد للمعركة ولكنهم مع ذلك يملكون أكبر النفوس وأعظمها وأقوى الأبطال وأقدرها .

واستشار النبي ﷺ أصحابه في مواجهة قريش ، فقام المقداد بن الأسود الكندي قائلاً للرسول : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » (١) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (يعني مدينة الحبشة) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

وقال سعد بن معاذ: قد آمنا بك وصدقناك (٢) وأعطيناك عهدنا ، فامض يا رسول الله لما أمرت ، فوالذي بعثك بالحق ، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسير على بركة الله .

لقد تقرر الحرب فلا مناص ، ولتأت قريش بكل جحافلها ، فإن للمسلمين عزيمة تفل الحديد وتذك الشم الرواسي من الجبال ، إن لديهم القلوب المؤمنة التي تنسابق إلى الموت فتراها امنيتها إذ هو إحدى الحسين لا محالة .

تسمائة وخمسون رجلاً يقابلهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، فارق عددي كبير . . فلو كان المسلمون يقاتلون به لانهارت عزائمهم وخارت قواهم ، ولكنهم لم يقاتلوا ولن يقاتلوا إلا بعزيمتهم وإيمانهم وحقهم . . إنها الشلة الطيبة الخيرة التي ليس على وجه الأرض مثيل لها ، إنها بمفردها آمنت بالله وخلصت له وتوكلت عليه . . لقد باعوا أنفسهم لله فهان عليهم كل شيء وتغيرت في أنظارهم مقاييس الحياة والموت .

وقف كل إزاء الآخر وجهاً لوجه ، ما هي إلا لحظات وتدلع المعركة وتبين النتيجة وينكشف الأمر .

(١) و (٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج ٢ ص ١٢٠ .

وفي تلك الأثناء خرج أبطال الشرك يدلون بشجاعتهم ، خرجت أفلاذ مكة وفرسانها ، لقد خرج ثلاثة رجال هم طليعة الشرك وشجعانهم ، ولعل بهم تتقرر النتيجة إذا هم ضربوا ضربة قضت على رؤوس المسلمين وشجعانهم .

لقد برز هؤلاء الثلاثة وفي نفوسهم أمل كبير ، إنها نهاية المسلمين . . برز عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، ثلاثة صناديد من أبطال قريش .

وماذا يريدون ؟

هل يدعون إلى الكف عن القتال وحقن الدماء والرجوع إلى بلدكم ؟ أم ماذا يطلبون ؟

إنهم يدعون للمبارزة !..

دعوة تحمل في طياتها الموت .. دعوة تحمل اعتداداً بالنفس وثقة بها .

ومن هؤلاء الثلاثة الطغاة والجبابة العتاة ؟ فليُخرج إليهم محمد ثلاثة من المسلمين . . وأمر النبي بأمره ، فبرز ثلاثة أبطال ممن شروا أنفسهم في سبيل الله ، برز عوف ومعوذ ابنا الحارث ، وعبدالله بن رواحة . . ها هم قد المحذروا نحو أخصاصهم لإجابة لهم واستجابة لتحدثهم ، وما ان وصلوا على مقربة منهم حتى قالوا لهم : من أنتم ؟

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : ما لنا بكم من حاجة .

ثم نادى مناديتهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

ما أشد الكبر في نفوس هؤلاء القوم ! يأبون مبارزة أحد إلا أمثالهم من الفرسان والشجعان ممن يمثلون الثقل في جانب المسلمين ، حتى تكون الضربة التي يوقعونها بأعدائهم ضربة قاصمة ، فلا تقوم للمسلمين بعدها قائمة .

ومن هؤلاء الطواغيت ؟ لا بد وأن ينتقي النبي أعظم أصحابه وأقواهم ، أشدهم وأشجعهم .

فقال رسول الله ﷺ : قم يا حمزة بن عبدالمطلب ، قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا علي بن أبي طالب .

وقام فرسان الله لأداء واجبهم وتوجهوا نحو أخصامهم ، فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ فانتسبوا .. فقالوا : أكفاء كرام .

فبارز عبيدة بن الحارث ^(١) عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبه ، وبارز علي الوليد .. فأما حمزة فلم يهل شيبه أن قتله ، وأما علي فلم يهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه (جرحه جراحة قوية) وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه .

وفي بعض المصادر : إن علياً قتل الوليد وأعان على قتل شيبه وعتبة ، وهذا يؤيد ما ذكره الإمام في بعض كتبه التي كتبها للمعاوية الباغي ، حيث ذكر فيها : « وعندي السيف الذي أعضضته يحدك وخالك وأخيك في مقام واحد » .

ويقول علي بن أبي طالب في مورد آخر : « فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف ^(٢) معي وبذلك القلب ألقى عدوي ، ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبياً ، وإني على المنهج الذي تركتموه طائعين ودخلتم مكرهين » .

إذن فلسيف علي عليه السلام فضل كبير ، به قد سقطت رؤوس الشرك وتهاوت تحت أقدام الحق .. وما أن انحلت المبارزة عن سقوط العناصر المعادية ، حتى اقتحم المسلمون كرجل واحد ، انقضوا يضعون فيهم السيف يقتلون ويأسرون ، وقد كان حصيلة ذلك أن قتل من المشركين سبعون فرداً وأسر سبعون .

ولو أردنا أن نعرف سهم علي من هؤلاء القتلى لكان شيئاً مذهلاً ، إنه حقاً

(١) الطبري ، ج ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) نهج البلاغة .

من الأرقام الخيالية التي 'تُلحق علياً بالمعجزات' ، بل حقاً إن علياً نفسه معجزة ، فكيف لا تأتي ضرباته وشجاعته وقوته عناصر تلك المعجزة ؟ ..

لقد قتل علي بسيفه نصف عدد القتلى ، علي وحده قد هشم رؤوس الكفر ، وعلى يديه تم الانتصار في بدر .

لقد عدد المؤرخون من قتلهم الإمام واحداً واحداً ، ذكروهم بأسمائهم وأوصافهم فبلغ عددهم خمسة وثلاثون رجلاً ، وكانوا من أشرف قريش وشجعانها وأهل القوة والنجدة فيها ، فلم يبق بيت في قريش لم ينله سهم من سيف علي .

ونحن لا نريد هنا ذكر أسماء من قتلهم الإمام فله مكان غير هذا ، ولكن يجب أن ننظر إلى موقف الإمام ودوره في هذه المعركة ، ونقلب أنظارنا في التاريخ وفي كتب السير والحديث والرجال وكل من تعرض لهذه المعركة ، لنرى كيف تم الانتصار؟ وبسيف من؟ وهل هناك شجاع يقف في صف ابن أبي طالب قديماً أو حديثاً؟ ..

وهل هناك من أصحاب محمد من تنازعه نفسه وتقوده جرأته إلى أن يتفوه بكلمة يفضل فيها أحداً من الصحابة على علي؟ فهل عز الإسلام وارتفعت راياته إلا بسيف علي ، وهل ارتفعت شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بضربات علي البكر ؟

إن أصحاب محمد ﷺ لهم الفضل والسابقة والأجر والثواب ، جاهدوا وبذلوا وقدموا ، ولكن أين هم من علي عليه السلام؟ إنه قد سبق الكل دور استثناء وفاقهم في جميع الخصال والخلال .. إنه معجزة محمد الخالدة في كل شيء في الجهاد والعلم والزهد والعدل .. إلى آخر قائمة الفضائل التي فاز علي بأوفرها .

دور الامام في معركة أحد

مواقف البطولة في أحد :

غزوة أحد هي إحدى الغزوات التي كان الإمام فيها سيف الله وفقى الإسلام الخالد ، به حفظ الله حياة النبي ، وبسيفه كشف الكرب عن وجه رسول الله في هذه الواقعة ، أعطي علي علامة فارقة في تاريخ النضال ، وضرب رقماً قياسياً في الدفاع عن رسول الله ، أنه موقف بطولي رائع لم يتحملة إلا من امتحن الله قلبه بالإيمان وملك شجاعة فائقة النظر منقطعة المثل ، أنها واقعة كلفت المسلمين الدماء والأنفس الزكية الطاهرة ، وقدّمت فيها أطر القرايين وأقدسها وأعز الأرواح ، وأغلاها على رسول الله حيث سقط حمزة عم النبي شهيداً في أرض المعركة مع عدد من المسلمين الطيبين المجاهدين دفاعاً عن العقيدة وصوناً لرسول الله من وصول الأذى إليه .

إنها معركة لحق النبي من آثارها وأذاها ، ما لم يلحقه فيما سبق ، ولن يلحقه فسيماً يأتي ، فقد شجّت جبهته الكريمة وأدميت شفّته وأصيبت رباعيته ، وبجمل هذه الواقعة ملخصاً مما روته كتب السير والتاريخ :

إن قريش بعد هزيمتها الساحقة في بدر ومقتل صناديدها ورجالها والأبطال منها عزمّت على الثأر من المسلمين رداً لاعتبارها الذي فقدته ، فلذا عزم أبو

سفيان رأس الكفر والضلال مع رجال من قريش أن تجعل العير التي سببت الواقعة في تمويل جيش لغزو المسلمين والقضاء عليهم ، واتفقت كلمة الكفر واتحد الباطل لمواجهة الحق .

لقد تأهبت قريش بما تملك من قوة وما عندها من عزم ، ولكن لنتأكد أزيد من النصر وتضمنه إلى جانبها ، قررت أن تضم إليها أكبر عدد من الناس ، فلذا سارت في العرب تستنصرهم لحرب المسلمين ، وقد أفلحت في مسعاها إذ جمعتهم لحرب رسول الله ، فقد استطاعت أن تعلم ما قدرت عليه حتى بلغ مجموعهم ثلاثة آلاف رجل يتقدمهم صاحب اللواء طلحة بن أبي طلحة .

ووصل النبا إلى مسامع النبي ، وأن قريش تريد غزو المدينة ، فاستشار أصحابه بين الخروج من المدينة لملاقاة قريش ، وبين بقائه فيها والدفاع من داخلها وبعد ابداء الآراء واختلافها ، قرر النبي أن تكون الحرب خارج المدينة ، فاختر (أحد) ، وخرج المسلمون بقيادة النبي ، وقد بلغ عددهم الألف ، وفي منتصف الطريق رجع شيخ النفاق عبدالله بن أبي بن قبيصة ، وقد بلغوا ثلاثمائة ، ولكن النبي لم يكن ليمن من ذلك التخاذل ، بل تابع مسيره حتى وصل إلى أحد ، فجعل الجبل خلف ظهره واستقبل المدينة بوجهه ، وكان قد وضع على ثغر جبل أحد خمسين من الرماة بقيادة عبدالله بن جبير وأمرهم أن لا يغادروا المكان موجهاً لهم قائلاً : احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف أن نؤتى ^(١) من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا ، اللهم إني أشهدك عليهم ، وارشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل .

ووصلت قريش إلى أحد ، واقترب الكفر والبغي ، ودنى الباطل حتى أصبح في مواجهة الحق ، وقاموا بعملية تقسيم الأدوار وتوزيع المهام فرتبوا أنفسهم

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٢٤ .

كما أحبوا وبالطريقة التي يرضون عنها كي يتيسر لهم النصر .

وفي تلك اللحظة التي كمل فيها التنظيم وتمت الموافقة الكاملة على ابتداء الحرب خرج من بين جموع الشرك حامل لوائهم ، وكان من أهم فرسانهم وأقوى شجعانهم فقد كانت العرب لا تعطي الراية ولا تسلمها إلا لمن يقوم بحققها ، ولا يفر عنها مهما اشتدت الأحوال واسودت الساعات لأنها رمز الصمود للجيش المقاتل وملتقاه ، فإذا سقطت فهي العلامة البارزة لسقوط شوكة المنضويين تحتها ، والمقاتلين من أجلها ، في هذه اللحظات خرج كبش الشرك وحامل الراية طلحة بن أبي طلحة يتقدم نحو المسلمين رافعاً صوته متحدياً لهم مستهزئاً بهم قائلاً :

« يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يجعلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يجعله سيفي إلى الجنة أو يعجلني سيفه إلى النار ؟ » .

بهذا البيان أفصح طلحة عما يريد ، إنه رجل معتد بنفسه يملك القوة والجرأة والشجاعة ، وإن العرب تعرفه أنه الفارس العظيم الذي يخطف الأرواح ويهوي بالنفوس إلى القبور ، فمن لهذا المشرك ؟ ومن يتقدم إليه ؟ أين أبطال المسلمين وشجعانهم عنه ؟ لماذا لم يردوا ؟ لماذا السكوت ؟

نعم سكوت الجميع إلا فرداً واحداً على يديه يتم التخلص من هذا المتكبر الذي لم يؤمن بالله ، إنه سيد المسلمين بعد محمد ، إنه علي بن أبي طالب عليه السلام .

وبرز علي لطلحة فلم يمهله أن ضربه ضربة قطعت رجله ، فسقط على الأرض وانكشفت عورته ، فنامشده الله والرحم فتركه الإمام .. وعندما رأى النبي ذلك كبر وكبر المسلمون من خلفه ، ثم زحفوا على المشركين فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى انكشف أهل الشرك لا يلوون على شيء ونساؤهم تدعو بالويل ، وتبعمهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا حتى أجبرهم عن المعسكر ووقفوا ينتهبون ، فلما رأى الرماة ذلك قال بعضهم لبعض : لم تقيمون ها هنا في غير شيء ؟ قد

هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم . فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا ؟ .. فاختلفوا بينهم ، فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير : إنه لا يخالف لرسول الله أمراً ، ولكنهم عصوه وانطلقوا فلم يبقَ معه إلا عشرة .

وهنا يخبرنا القدر مصائبه وتأني النازلة العظمى لتحلّ بالمسلمين ، حيث يرى خالد بن الوليد ذلك - وقد كان على خيل المشركين - يرى قلة المسلمين في ثغر الجبل ، فيصيح بخيله ثم يحمل على الرماة فيقتلهم ويستشهد أميرهم على يد ابن الوليد .. ولما رأى المشركون أن خيلهم تقاقل تنادوا فشدوا على المسلمين ، وكانت المأساة التي لم يعرف المسلمون مثيلاً لها في تاريخهم ما قد مضى منه وما هو آتٍ .. إنها هزيمة بعد نصر ، وانكسار بعد انتصار ، وهذا له في القلوب وقع لا يدرك وأثر لا يحبر .

لقد آن للنبي أن ينشر كنانته ، وحقّ للمسلمين أن يبرزوا شجاعتهم ويقدموا الشهداء والقرايين .. إنها السيوف قد شحذت ، والهمم قد التهبت ، وقريش قد أتاها النصر الذي صنعه لها ابن الوليد .

لقد أحدق المشركون بالمسلمين وأطبق الكفر على النبي وصحابته يريدون القضاء التام عليهم .. إنها نهاية المسلمين وخاتمة حياتهم .

ونشر رسول الله ﷺ كنانته ، فرمى بالنبل حتى فنيت نبله وتكسرت سية قوسه ، لقد انقطع^(١) وتره وبقيت في يده قطعة تكون شهراً في سية القوس ؛ لقد باشر رسول الله الحرب بنفسه ، فرمى وضرب وقتل ، ولماذا يباشر محمد الحرب بنفسه ؟ أين جموع المسلمين ؟ أين أبطال الحروب وفرسان المسلمين ؟ أين

(١) مغازي الواقدي .

الذين بايعوه على الموت وأحبوا حياتهم وقدّموها على حياتهم ؟ أين هم اليوم ؟ هلاًّ صمدوا في وجه العواصف الطاغية التي تقودها قريش ؟ وهل يستطيعون المقاومة أو يدفعون عن أنفسهم وعن نبيهم القتل ؟ .. لقد حمى الوطيس واشتد القتال وثار النقع يسدّ الفضاء ، ولم يبقَ مع النبي إلاّ خلّص أصحابه من المؤمنين الذين أحبوا نبيهم وإسلامهم ، فإذا أصابها مكروه فلا يسألون عن الحياة بعد ذلك .

وفي هذه اللحظات الحاسمة الحرجة تتمّبيعة خالدة تذكرها كتب التاريخ ، إنهابيعة ليست على صفقة رابحة بالنظر المادي ، ولابيعة على ملك في الدنيا ، إنما هيبيعة للنبي على الموت .. لقد بايعه الإمام علي عليه السلام مع سبعة معه على الموت ، فلاّ فرار من الزحف ولا نكوص عن المعركة ، إنه الضراب حتى النفس الأخير .

نعم ، لقد بايع علي للنبي ، وهو بدونبيعة لا يتخلى عن رسول الله ، فلأجل النبي خلق ومن أجل الإسلام يبذل نفسه ودمه .

ولنا الحق أن نتساءل : أين الجموع الباقية من المسلمين ؟ أين حمزة ؟ أين الصديق ؟ أين عمر ؟ أين عثمان ؟ أين .. أين ؟ ..

أما حمزة فقد قدّم نفسه قرباناً في هذه المعركة ، لقد استشهد وكذلك غيره من المسلمين قد استشهد ، فالشهداء إلى الله قد فازوا بحياته ورضوان من الله أكبر .

ولكن أين عثمان بن عفان ؟ هل تخلى عن نبيه في هذه المعركة ؟ أين أبو بكر ؟ لماذا لم يُسمع له صوت ولم يضرب بسيف ولم يرم عن قوس نبلاً ؟ أين ابن الخطاب ؟ هل ترك النبي وحده في حومة الميبدان يكابد هول المعركة وقساوتها ؟ أين هم رجال المسلمين ؟ ..

نعم ، إذا أردنا أن نعرف أين عثمان وعمر ، فما علينا إلا أن نفتش عنها خارج المعركة ، فلنفتش عنها في موطن آخر ، في موطن آمن يأمنون به على

أنفسهم ويحفظ عليهم أرواحهم .

أما عثمان ، فبإجماع المؤرخين ، قد فرّ لا يدفع عنه الفرار أحد ولا يعذره فيه بشر . يقول ابن الأثير في تاريخه :

وقد انتهت الهزيمة بجبهة من المسلمين ، فيهم عثمان بن عفان وغيره ، إلى « الأعوص » (١) ، فأقاموا به ثلاثاً ثم أتوا النبي ، فقال لهم : « لقد ذهبتم فيها عريضة » .

وأي عرض بعدها ، وأي عار أكبر منها ؟ ! قوم مسلمون يتخلون عن نبيهم في ساعة العسرة وفي أخرج المارك وأشدّها ! .

وإذا أردنا أن نعرف أين أصبح عمر ، فلنرجع إلى الواقدي في مغازيه لينبئنا عنه : قالوا : أتينا عمر بن الخطاب في رهط من المسلمين قعوداً ، ومرّ بهم أنس ابن النضر بن ضمض عم أنس بن مالك فقال (٢) : ما يقعدكم ؟ قالوا : « قُتل رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم جالد بسيفه حتى قُتل .

وهذا ما ذكره الطبري في تاريخه حيث قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس ابن مالك إلى عمر بن الخطاب (٣) وطلحة بن عبد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا ما بأيديهم ، فقال : ما يحلسكم ؟ قالوا : « قُتل محمد رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا كراماً على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل .

أين ابن الخطاب وصوته الجمهوري ما له قد خفت ؟ لماذا ألقى ما في يده واستلقى ؟ هل انتصر في المعركة وانهزم الشرك ؟ وكيف يتخلى عن نبيه ويتركه

(١) الأعوص : موضع قريب من المدينة .

(٢) المغازي للواقدي ، ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣) الطبري ، ج ٣ ص ٥١٧ .

يكافح الأعداء وقد أحدقوا به وبمن معه من القبيلة المؤمنة ؟ لماذا لم يشحذ سيفه ويشد عزمته ويضرب ، فلعله يقتل كافراً فيدخله النار أو يقتله كافر فيدخل الجنة ، أو يسد فرجة لعل العدو ينفذ منها إلى النبي ﷺ فيصيده بمكره ؟ أين هو ؟ من يبحث يعرف أين هو ...

وأين أبو بكر ما له لا يسمع له صوت ولا ترتفع له عقيرة في خلال هذه المعركة ، فلم يذكر أنه قتل أحداً أو انتضى سيفاً أو دافع عن رسول الله ﷺ نعم أن له موقفاً يذكره ابن الأثير في تاريخه وغيره من المؤرخين ، وهو أنه قد كان ولده عبد الرحمن بن أبي بكر مع المشركين ، فنزل إلى المعركة وطلب المبارزة ، وهنا أراد أبو بكر أن يشكل نفسه إن قدر أو يفجع ولده ، فأراد أن يبرز لابنه ، ولكن النبي حفاظاً عليه ، وخوفاً من أن يراق دمه على يد ولده قال : « شم^(١) سيفك وامتنعنا بك » .

ولهذا الموقف عدل ونظير يمثله عمر والزبير ، حيث قال رسول الله ﷺ في ذلك اليوم : من يأخذ^(٢) هذا السيف بحقه .

قالوا : وما حقه ؟

قال : يضرب به العدو .

فقال عمر : أنا فاعرض عنه رسول الله ﷺ .

ثم عرضه رسول الله ﷺ بذلك الشرط .

فقام الزبير فقال : أنا فاعرض عنه رسول الله ﷺ حتى وجد (حق) عمر والزبير في أنفسهما .

ثم عرضه الثالثة ، فقال أبو دجاجة : أنا يا رسول الله ﷺ آخذه بحقه فدفعه إليه رسول الله ﷺ .

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) المغازي للوافدي ج ١ ص ٢٥٨ .

هذه إحدى الصور التي تمر أمام الناس ويذكرونها التاريخ، إنها واقعة واحدة تمر فيها هذه الأحداث المتلاحقة من هؤلاء الأبطال ، لم نسمع عنهم أنهم نزلوا لفارس طلب البراز ، فإذا كان ذلك ردهم النبي أو منعهم أو أعرض عنهم ، وإذا حمي الوطيس ودارت رحى الحرب ، كانت نصيبهم الفرار من الزحف والتولية عندما يلتقي الجيشان وتشتبك الأسنة وتشرع الرماح .

وأي من هم من علي ؟

هل نستنتج التاريخ عنه ؟ وهل بحاجة نحن لذلك ، ونحن نعرف من هو ؟ وأي من هو الشجيمان ، أنه درة التاج أن عدت الأبطال وله الكليل الغاران ، سمعنا بغزوة انتصر فيها المسلمون أو كادوا .

وفي هذه الغزوة كان الإمام يثمل الدرع التي تقى رسول الله عن وصول مكروه إليه ، أنه معه يحامي عنه ، يدفع عن وصول الأذى إليه ، أنه يحارب على جميع الجبهات ، يدفع هذه الكتيبة بسيفه فيردها ، ويقاوم تلك فيصدها حتى نادى جبرائيل :

لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار

ذكر الطبري :

لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية ^(١) ، أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: أحمل عليهم فحمل عليهم ، ففرق جمعهم وقتل عمر بن عبد الله الجمحي ، ثم أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي : حمل عليهم فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبه بن مالك بن عامر بن أوي ، فقال جبرائيل : يا رسول الله إن هذه المؤسسة ، فقال رسول الله : (إنه مني وأنا منه) ، فقال جبرائيل : وأنا منكما فسمعوا صوتاً :

(١) الطبري ج ٢ ص ٥١٤ .

لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار

فهذه مواقف علي تستصرخ الناس ليكونوا حكماً بينه وبين من يسوى به غيره إن من يقرن علياً بغيره فهو إنسان متعصب لهواه، اتخذ إبليس إماماً في عصبيته فأبى مخالفته، فلذا عمد إلى كل هذه الظواهر الشاذة من الجهاد الكبير لعلي، فجعلها لا شيء، بل فضل من فرّ وهرب أو جبن وقعد، وهل هذا يستحق الرد إنه العمى الذي يصيب البصائر، فيحول الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، إنه التعصب والجور.

فاسمع للجاحظ حيث يقول :

«والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي قتله الإقران وخوضه الحروب، وليس له في ذلك كبير فضيلة، لأن كثرة القتل والمشي بالسيف إلى الإقران، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل، وكان دليلاً على الرئاسة والتقدم لوجب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة وابن عفراء والبراء بن مالك، من الفضل ما ليس لرسول الله ﷺ لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً، ولم يحضر الحرب يوم بدر ولا خالط الصفوف، وإنما كان معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر.

ثم يقول : وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الإقران ويحندل الأبطال، وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز، وهو الرئيس أو ذو الرأي والمستشار في الحرب، لأن للرؤساء من الإكتراث والإهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة : وعليه مدار الأمور، وبه يستبصر المقاتل ويستنصر، وباسمه ينهزم العدو» .

يا لله من الأسف، هكذا مسخ الجاحظ عقله وصغرت قدره، لقد تنازل عن كل عبقريته، وهبط إلى الخضيض في التفكير كي يدحض منقبة لعلي يتقدم بها على من يحبه الجاحظ، لقد خبط وهبط وسبح في ماء آسن وفكر فقدر، فقتل كيف قدر، وأثبت أن الأطفال بصفائهم حكموا عليه بالخبل، حينما عرض هذه

الأفكار لأنها أحسن المحامل له وأشرفها .

وأحسن رد عليه وابلغه بحيث يلقيه حجباً ، هو ما رد به أبو جعفر الاسكافي في تفنيده للحجج التي أوردها ، أذكر منها بعض ذلك .

يقول : كيف يقول الجاحظ لا فضيلة لمباشرة الحرب ، ولقاء الإقران وقتل أبطال الشرك ؟ وهل قامت عمدة الإسلام إلا على ذلك ، وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ، أترأه لم يسمع قول الله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » والمحبة من الله تعالى ، هي إرادة الثواب ، فكل من كان أشد ثواباً في هذا الصف وأعظم قتالاً ، كان أحب إلى الله ، ومعنى الأفضل الأكثر ثواباً ، فعلي عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله ، لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص لم يفرق بجماع الأمة ، ولا بارزه قرن إلا قتله ، فوقف الناس في الجهاد على أحوال ، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض ، فمن دلف إلى الإقران واستقبل السيوف والأسنة ، كان أثقل على أكتاف الأعداء لشدة نكايته فيهم ، ومن وقف في المعركة وأعان ولم يقدم ...

ثم قال ونعم ما قال :

وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ونظرت السير وقرأت الأخبار ، عرفت أنها كانت تطلب محمداً ﷺ وتقصده قصده وتروم قتله ، فإن أعجزها وفاتها طلبت علياً وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً ، وأقربهم منه قريباً ، وأشدهم عنه دفعاً ، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه ، أضعفوا أمر محمد ﷺ وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة والنجدة والإقدام والبسالة ...

إلى آخر ما يرد به أبو جعفر الاسكافي على الجاحظ ، ونعم ما رد به عليه إذ هو في غاية الجودة والمثانة سده ربه لنصرة الحق وأهله ، من أراد التفصيل

فليرجع إلى شرح النهج لابن أبي الحديد .

فهذه واقعة واحدة تمر أمامنا أحداثها ، يستحق فيها علي رقبة الشرف
بتفوق كبير حيث ينادي أمين الله جبرائيل بفتوة علي وسيفه ، وسبقه هذا
التداء تردده الأجيال المسلمة ، ما امتد عمر الدنيا وما سمر على وجه هذه الأرض
سمير ، وسبقه فرار من فر عاراً إلى يوم الدين .

دور الإمام في فتح خيبر

فتح خيبر :

لقد كان دور الإمام علي عليه السلام في هذه المعركة دوراً فذاً امتدت إليه الأعناق من كل جانب، وتمنى كل واحد أن يكون هو سيد الموقف وبطل الفتح، ولكن للنصر رجال يصنعونه بعزيمتهم وقوتهم، وللفتح سلاح مرصود بيد الأوحدي من الناس، وعلي عليه السلام هو سيد الفاتحين وإمام المنتصرين.

ففي هذه المعركة، بعد أن قرر النبي صلى الله عليه وآله غزو خيبر تأديباً لليهود الذين غدروا وخاذلوا ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله، قرر النبي أن يفتح حصونهم، وقد كانت حصوناً منيعة قوية حصنها اليهود استعداداً لمثل هذه الحالات الطارئة.

دعا النبي أبا بكر، فعقد له الراية ووجهه إلى فتح خيبر، فسار بالناس وبقي طيلة يومه دون أن يحقق شيئاً، بقي يراوح مكانه حتى رجع دون أن يظفر بشيء. ثم في اليوم الثاني دعا النبي عمر بن الخطاب فعقد له الراية ووجهه إلى الحصن، ولكن هل يكون ابن الخطاب أسعد حظاً ممن تقدمه؟ كلا.. إنه ليس بأقدر من أبي بكر فرجع منهزماً، بل زاد أنه رجع إلى رسول الله يحزن أصحابه ويحزنه أصحابه.

وهنا عزّ على رسول الله ﷺ أن يعقد بيده لواءً فيرجع خائباً ، أو يوجه أحداً نحو هدف فيرتد منهزماً .

عزّ على رسول الله أن يتأخر الفتح وبيده مفاتيح النصر ، لقد أعلنها كلمة خالدة تتضمن معاني عميقة ومغازٍ جليلة قائلًا : « لاعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، كرّاراً غير فرّار يفتح الله عليه ، جبرائيل عن يمينه وميكائيل (١) عن يساره .

وهنا اشرأبت الأعناق وامتدت وتمنى كل واحد أن يكون مصداق ذلك ، حتى ان عمر بن الخطاب قال : ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ ، ولكن لله خواص في بعض الناس . . وبات المسلمون ليلتهم كلٌ يتمنى أن يعطيه النبي تلك الراية ، ولكنه صلوات الله عليه يعلم لمن يدفعها وبيد من يجب أن تكون .

وارتفع صوت محمد ﷺ قائلًا : ادعوا لي علياً ، فيدفع إليه الراية فيأخذها علي وينحدر نحو الحصن ، فيجد ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال الإمام مجيباً :

أنا الذي سمّني امي حيدرة كليث غابات كربه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

واختلف علي مع مرحب ضربتين ، فضربه علي على هامته حتى عض السيف منها بأضراسه ، وسمع أهل المعسكر صوت ضربته وانهمز أصحابه فتحصنوا وأغلقوا الباب ، فتقدم الإمام إلى الباب ففتحه ، وكان باباً عظيماً يعجز الجمع

(١) كنز العمال ، ج ٦ .

الغفير عن رفعه ، وقد أشار ابن أبي الحديد في علوياته ، حيث قال مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام :

يا قالع الباب الذي عن هزمه عجزت أكف أربعين وأربع

وفي رواية الطبري عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ : ان علياً عندما خرج لمقاتلة أهل خيبر ، ضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده ، فتناول علي باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ .. فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

هذا أحد المواقف العظيمة للإمام عليه السلام ، فعلى يديه تم فتح الحصن وبسيفه قتل مرحب .. فهل يستوي فاتح الحصن وقالع الباب مع من رجع يمين أصحابه ويحبه أصحابه ، أو مع من انهزم ولم يقدر أن يصمد أمام جمع اليهود ؟ ..

هل يستوي النصر والهزيمة ، أم يستوي من يكره ومن يفر ؟ .. إنه أمر غريب أن يقاس علي بغيره ، وإليه تتجه الأنظار إن حزب أمر أو وقع المسلمون في شدة أو ضيق !.

دور الإمام في غزوة الخندق

أما في هذه الغزوة فقد كان لملي عليه السلام فيها سهم وافر ونصيب فساق كل المسلمين مجتمعين إلى يوم الدين ، إذ كان فارسها الوحيد الذي جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث اجتمعت الأحزاب واليهود ومن لف لفهم لغزو المدينة والقضاء على المسلمين .

فبعد أن اقتحم عمرو بن عبد ود الخندق الذي حفره النبي حول المدينة ، وأخذ يحول ويحول وكان يعد بألف فارس ، ويتحدى المسلمين بقوله : هل من مبارز ؟ وينشد ويردد :

ولقد بحجت من النداء يجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن الشجاع موقف القرن المناجز

أمام هذا النداء هدأت أصوات المسلمين وكأن على رؤوسهم الطير كل يفكر في نفسه ويحسب لهذا البطل ألف حساب ، وعمرو يرعد ويهدد ويقول للمسلمين : « أيها الناس ، إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار .. أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة أو يقدم عدواً له إلى النار ! » .

وأخذ عمرو يطلب البراز فلم يجد من يجيبه ، إلا شخصاً واحداً كان يقف ويطلب من النبي الاستئذان .

وتكرر النداء وتكرر وقوف هذا الشخص إلى أن استأذن في المرة الثالثة من النبي ، فأذن له .

هل يخفى ذلك الشخص عن أعين الناس ؟ وهل غاب في موقف ما ؟ ! كلا.. إنه علي بن أبي طالب عليه السلام .

نعم ، لقد أذن له النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرة ، بعد أن عمّته بمهامته وقلده سيفه ومنحه أشرف وسام وأعظم رتبة شرف سيبقى صداها يتردد على مرور الزمن ، قائلاً : « برز الإيمان كله إلى الشرك كله » .

وانحدر الإمام عليه السلام نحو عمرو ، فلما وصل إليه قال له : يا عمرو ، إنك كنت في الجاهلية تقول : لا يدعوني أحد إلى ثلاثة إلا قبلتها أو واحدة منها . قال : أجل .

قال : فلاني أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تسلم لرب العالمين .

قال : أخر عني هذه .

قال : أما إنها خير لك لو أخذتها ، ثم قال : ترجع من حيث جئت .

قال : لا تتحدث نساء قريش بهذا أبداً .

قال : تنزل تقاقلني .

فضحك عمرو وقال : ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها ، وإني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك .

فقال الإمام : لكنني أحب أن أقتلك فانزل إن شئت .

فغضب عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه فعقرها ثم أقبل على علي فتناوشا فضربه عمرو في الدرقه فقدمها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه ، وضربه الإمام ضربة على عاتقه فسقط إلى الأرض ، وعندها كتب الإمام وكثير المسلمون من خلفه وانجلت الواقعة عن مصرع عمرو ، واستحق علي أن يقول

النبي فيه : « مبارزة علي بن أبي طالب لعمر بن عبد ود أفضل من عمل أمي إلى يوم القيامة » (١) .

فأين الأبطال عن ملاقاته عمرو ؟ ولم هدأت الأصوات ولم يُسمع لأحد منهم حس ؟ هل في السوح غير علي ؟ وهل لملاقاة الأقران غير ابن أبي طالب ؟ أين الذين تقدّموه ؟ أين من ادّعى لهم الأفضلية عليه ؟ لماذا لم ترتفع أصواتهم في تلك الساعات الحرجة ، بل لاذوا بالصمت مكتفين أن جيء بأسير إلى النبي مكتوف اليدين أن ينبري عندها أحدهم ويعلو صوته : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا الكافر أو المنافق .

نعم ، إن هذا الوقت ليس وقت مساومة على النفس ، وليس كل واحد يقدر على ملاقاته الأبطال وتحمله قدماء أن يقدم نفسه شهيداً في سبيل الله .

نعم ، هناك بطل خالد لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، إنه ابن أبي طالب الذي ينتزع النصر انتزاعاً .

(١) البحار ، ج ٤١ ص ٩١ .

دور الإمام في حرب الجمل

لقد أجهز على عثمان عمله فأورده مورده ، واجتمعت كلمة المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين علىبيعة الإمام ، وكان أول من بايعه وصفق على يده طلحة ثم الزبير .

روى البلاذري : فلم يبقَ أحد من أهل بدر إلا أتى علياً فقالوا : ما نرى أحداً أحق بهذا الأمر منك .. فلما رأى علي ذلك صعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه فبايعه طلحة بيده وكانت شلاء ، فتطير منها علي وقال : « ما أخلقه أن ينكث » .

وفي رواية الطبري : إن حبيب بن ذؤيب نظر إلى طلحة حين بايع فقال : أول من بدأ بالبيعة يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر .

اجتمع المسلمون واتفقت كلمتهم على استخلاف علي ولم يعد بإمكانه دفعهم عنه ، حتى قال عليه السلام في إحدى خطبه مصوراً تلك الحال : فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ ينثالون عليّ من كل جانب ، حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفائي مجتمعين حولي كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وفسق آخرون .

ولكن هذه اليد التي بايعته قررت أن تغدر به ، إذ انها توقعت مع الزبير أن

تقتسم المغانم التي يمكن أن تنالها من خلافة علي ، ولكن بعد تصريح الإمام لهما أنه ليس عاجزاً حتى يشركهما في أمره ، أيقنا أن الأمر قد فاتهما وأن علياً يستقل بالخلافة ، فأخذوا يفكران في إعلان الحرب عليه ولكنهما تحت يده ، إنهما لا يزالان في المدينة وهي تحت سلطانه وإرادته ، مضافاً إلى أن الإمام لم يحدث شيئاً يؤخذ به أو يحاسب عليه ، ولا يمكن أن تتوجه نحوه أية تهمة ، خصوصاً وأنهما قد بايعاه وصدقوا على يديه بالأمس .

إذن ليس بإمكانهما أن يعلنوا العصيان عليه وهما في المدينة ، فلذا فكرا بمكة ، إنها البلدة التي آوى إليها حشالة الامويين وأعداء الإمام ، مضافاً إلى وجود أم المؤمنين عائشة فيها حيث خرجت قبل مقتل عثمان ورفضت دعوى مروان لها أن تتوسط بين الخليفة عثمان والشوار وتتأخر عن رحلتها إلى مكة لعل الله يدفع بها القتل عن الخليفة ، ولكنها أصرت على مغادرة المدينة موجبة على نفسها - كما تدعي - العمرة .

لقد استأذن طلحة والزبير من الإمام في العمرة ، فقال لهما : ما العمرة ^(١) تريدان ، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة ، فقال لهما : ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة ، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما رأيهما غير العمرة ، فقال لهما : فأعيدا البيعة لي ثانية ، فأعاداهما بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق ، فأذن لهما وخرج الاثنان من المدينة إلى مكة فلم يلقياً أحداً إلا وقالوا له : ليس لعل في أعناقنا بيعة ، بايعناه مكرهين والتمحما بمكة ، واجتمع فيها كل من لم يكن هواه مع علي أو على رأيه .

إذن اجتمع كل أخصام الإمام في هذه البلدة الطيبة ، إنهم في جوار الله يريدون حرب أولياء الله . . ما أقسى يد القدر أن يعقد العزم في حرم الله على معركة تودي بحياة جملة من أفراد الصحابة الذين عايشوا الدعوة وبزوغ فجر

(١) ابن أبي الحديد ، ج ١ ص ٢٣٢ .

الإسلام ، ولكن المطامع والأهواء والأحقاد التي في الصدور تأبى أن تتخلى عن محاربة الحق المتجسد في علي وأصحابه .

إن مسؤولية حرب الجمل 'تلقى على ثالث مكوّن من امرأة ورجلين ، وإن دماء الآلاف التي اهدرت في هذه الواقعة تقع في أعناق هؤلاء الثلاثة وهم الذين يتحملون آثارها والحساب عنها ، ويتحمل القسط الأوفر منها أم المؤمنين عائشة إذ كانت هي الحاملة لقميص عثمان تنسادي بمظلوميته ، وكانت قد رفعته من قبل شعاراً لظلمه .

يقول ابن الأثير : إن عائشة كانت قد خرجت إليها - إلى مكة - وعثمان محصور ، ثم خرجت تريد المدينة ، فلما كانت (بسرف) لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سامة وهو ابن أم كلاب ، فقالت له : مهيم ؟ قال : قتل عثمان وبقوا ثمانية ، قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : اجتمعوا على بيعه علي ، فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردوني ردوني ، فقال لها : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر .

إن أم المؤمنين هي أول من حمل راية المعارضة ضد عثمان لأنه أنقص من عطاياها الذي فرضه عمر لها ، حيث ميّزها ^(١) ورفيقتها عن سائر نساء النبي ورفع عطاياها عن عطاياهم ، وقد كان عمر هو أول من فاوت في القسمة وعدل عن طريق النبي ، فقد ميّز عمر بين المهاجرين والأنصار وبين القرشيين وغيرهم ، وكان هذا أول انحراف عن مسيرة الرسالة وسلوك النبي .

روى اليعقوبي في تاريخه : فقد بدأ - عمر - بالعطاء بالعباس بن عبد المطلب في ثلاثة آلاف ، وكل من شهد بدرأ من قريش في ثلاثة آلاف ، ومن شهد بدرأ من الأنصار في أربعة آلاف ، ولأهل مكة من كبار قريش مثل أبي سفيان بن

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٤٢ .

حرب ومعاوية بن أبي سفيان في خمسة آلاف، ثم قرش على منازلهم ممن لم يشهد بدرأ، ولامهات المؤمنين ستة آلاف، ولعائشة وأم حبيبة وحفصة في اثني عشر ألفاً، ولصفية وجويرية في خمسة آلاف... وفي أهل مكة الذين لم يهاجروا في ستمائة وسبعمائة، وفرض لأهل اليمن في أربعمائة ولمصر في ثلاثمائة ولربيعية في مائتين.

فقد كان لام المؤمنين عائشة وحفصة خصوصية عند عمر، ولكن عندما تولى عثمان الخلافة لم يترك الأمر كما هو بل أنقصها نصيبها، فلذا حملت عليه حملتها الشديدة وأعلنت عليه الثورة، وهما هي الآن تتطلع إلى ابن أبي طالب فتراه على الحق الصريح ولكن كثيراً من الناس يخافون العدل، فلذا أعلنت مع طلحة والزبير قادة العصيان، أعلنت معها الحرب على إمام الهدى.

ومن مكة توجهت ام المؤمنين وصحبها نحو البصرة، لقد أرادوا أن يتخذوا منها حصنهم الذي منه يقدفون ابن أبي طالب بالحرب، وقد جرت في الطريق أحداث لام المؤمنين أبانت لها معالم الحق بصراحة وبصرتها أزيد، وإن كانت تعرف الحق انه في صف الإمام ومعه، إنها تعرف أن الحق مع علي بالنص الصريح من النبي ﷺ...

لقد نبهتها كلاب الحوآب في الطريق فأبت أن ترجع، وكتبت إليها ام المؤمنين ام سلمة ذلك الكتاب العظيم التي تقول فيه: «ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك بأطراف الفلوات ناصّة قلوصلك قعوداً من منهل إلى منهل، ان بعين الله مثواك وعلى رسول الله تعرضين.. ولو أمرت بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً جعله الله عليّ».

إن ام المؤمنين عائشة كانت من أعلام الثورة على الإمام علي ولن ترجع معها كلفها الأمر، فلذا أقبلت مع جيشها حتى وصلت البصرة، فنزلوا بموضع يقال له (المربد)، وخطب الزبير وطلحة وخطبت ام المؤمنين.

لقد عظم على المسلمين الغيورين خروج ام المؤمنين، فلذا حارب كثير منهم

من أجلها ، لا من أجل إيمانهم بأنها وجماعتها على الحق ، أنهم نظروا إليها أنها زوجة نبيهم وأم المؤمنين ، فكيف يتخلون عنها ، لقد حارب كثير منهم غيرة وحفاظاً عليها ، وقد تدمر كثيرون لخروجها من بيتها الذي أمرها الله بلزومه ، فهذا جارية بن قدامة السعدي يقول لها : يا أم المؤمنين ^(١) والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، أنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك واجت حرمتك ، أنه من رأى قتالك يرى قتلك .

وقال لها أبو الأسود عند دخولها البصرة : وما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا ؟ وأنت حبيس رسول الله ﷺ أمرك أن تقري في بيتك ، فاجت تضربين الناس بعضهم ببعض .

لقد دخلوا البصرة ، وكان عثمان بن حنيف عاملاً من قبل الإمام عليها ، وبعد محاورات جرت وأخذ ورد اتفقوا مع ابن حنيف أن يبقى يصلي بالناس حتى يكتب لعل ويأتيه الجواب ، ولكنهم لم يلبثوا إلا يومين حتى وثب عليه طلحة والزبير ومروان بن الحكم ، أتوه نصف الليل في جماعة معهم في ليلة مظلمة سوداء مطيرة ، وعثمان نائم فقتلوا أربعين رجلاً من الحرس ... وأرادوا قتله ، فسمحت عائشة بالعفو عنه ، فنتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه .

وأما الإمام علي فقد خرج من المدينة بعد أن عرف بخروجهم إلى البصرة ، خرج ليقطع الطريق عليهم إليها ، خرج ومعه وجوه المهاجرين والأنصار ، ولكن القوم فاتوه وسبقوه إلى البصرة ، وتنقل الإمام بين الربذة وقرب الكوفة ، وفي نهاية المطاف بعد أن ألتحق فيه من التحق ، أكمل السير حتى وصل البصرة .

إنها البصرة ستجري على ثراها أول معركة بين المسلمين ، وستكون فاتحة

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٣ .

الشر بين أمة وحدّها النبي وجمع كلمتها ، لقد وقف الجميع وجهاً لوجه ينتظرون اللحظة الحاسمة التي يدق فيها النذير صوت الحرب .

قام الإمام ووعظ فخوف ورغب فذكر بالله كثيراً ، ولكنها النفوس الشحيحة تأبى أن تدعن للحق ، ثم تقدم نحوهم على بعلة رسول الله الشهباء ، وهو حاسر فقال أين الزبير ؟ فخرج إليه شاكاً سلاحه ، فقيل لعائشة فقالت : واحرّباه باسماء ، فقيل لها : إن علياً حاسر فأطمأنت واقتربا حتى اختلفت أعناق فرسيهما ، فقال له الإمام :

تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم ، فنظر إليّ فضحك وضحكتُ إليه فقلت له : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله : ليس به زهوه لتقائلنه وأنت له ظالم .

قال : اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لا أقاتلك أبداً ، وعندها رجع الزبير إلى أم المؤمنين بغير الوجه الذي فارقتها منذ قليل ، لقد رجع إليها وقال لها : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا .

قالت : فماذا تريد أن تصنع ؟

قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

لقد رجع الزبير عن الحرب ، ولكن تلك العصابة لن تنتهي عن غيها ، إنها ستكون الشوط مهما كانت النتائج ، وعواقب ذلك حتى لو كانت الخزي والعار وبعدهما النار .

والتقى الصفان ودارت رحى الحرب ، فما هو دور الإمام في تلك المعركة ، أنه الموجّه والمحارب ، وسأقتصر على بعض تلك المواقف التي أعادت للإمام ضرباته في بدر وأحد والأحزاب ، لئن وقف سيف الإمام مدة ربع قرن ، فإن وقفته تلك كانت لا عن كلل ، بل للظروف القاسية التي مرّ بها .

قال ابن أبي الحديد : دفع (الإمام) الراية إلى محمد (ولده) وقال : أقدم بها حتى تركها في عين الجمل ولا تقفن دونه ، فتقدم محمد فرشقته السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفذ سهامهم ، فلم يبق لهم إلا رشقة أو رشقتين ، فأنفذ إليه علي عليه السلام يستحثه ويأمره بالمناجزة ، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه ^(١) من خلفه ، فوضع يده اليسرى على منكبيه الأيمن وقال له : أقدم لا أم لك ، فكان محمد رضي الله عنه ، إذا ذكر ذلك بعدُ يبكي ويقول : لكأني أجد ريح نفسه في قفائي ، والله لا أنسى أبداً ، ثم أدركت علياً عليه السلام رقة على ولده ، فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في يمين يديه ، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين ، فلم يجب أحداً منهم ولا رد إليهم بصره وظل ينحط ويزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله وتبادروه ، وأنه اطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً ، ثم دفع الراية لابنه محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم فضرهم بالسيف قُدماً قُدماً والرجال تفر من بين يديه ، وتجاوز عنه يئنة ويسرى حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فاعصوصب به أصحابه ، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام ، وقالوا : انك أن تصب يذهب الدين فامسك ونحن نكفيك .

فقال : والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة .

ثم قال لمحمد ابنه : هكذا تصنع يا ابن الحنفية .

فقال الناس : من الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين .

ان للإمام ضربات هي فريدة من نوعها ، ولم يكن هذا الموقف إلا أحدها ، فقد برز إليه في تلك الواقعة عبد الله بن خلف الخزاعي وهو رئيس البصرة ،

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥٧ .

واكثر أهلها مالا وضيعاً ، فطلب البراز وسأل أن لا يخرج إليه إلا علي عليه السلام
فخرج إليه فلم يمهله أن ضربه ففلق هامته ، وكذلك قالت الرجال ، وكلما برز
منهم واحد ، قسم الله عمره بيد الإمام ، ثم التحم القتال بين الفريقين ، فما هي
إلا ساعات حتى انجلى الموقف عن هزيمة ساحقة للناكثين ، وقتل طلحة قتله
مروان بن الحكم .

لقد انجلت المعركة عن آلاف من القتلى صرعهم بغيهم وخروجهم على إمام
الحق والهدى علي بن أبي طالب ، لقد كانت لسيف علي المقام المشهور ولعلي
الشجاعة المعهودة التي لم ينسأها الدهر ولن ينسأها ، وسقط الجمل الملعون .

وأمر الإمام منادياً فنادى : ألا لا تتبعوا (١) مدبراً ولا تجهزوا على جريح ،
ولا تدخلوا الدور ، وقال لمحمد بن أبي بكر : أنظر هل وصل إليها شيء من
جراحة ؟ فادخل رأسه في هودجها - السيدة عائشة - فقالت : من أنت ؟

فقال : أبغض أهلِكَ إليك ، قالت : ابن الخثعمية ، قال : نعم ..

وقد بقي لأم المؤمنين من معركة الجمل آثار ظاهرة شاخصة أمام عينيها ،
كيف قامت هذه الأم بهذه المحازر ، وكيف ضحّت بهذه الأنفس البريئة من أجل
مطامعها ومطامع عصبيتها ، وكيف أنها لو بقيت محافظة على سترها وحجابها ،
ولم تحارب أمام الحق والهدى ، كيف كانت في منزلة غير ما وصلت إليها الآن
وتمت لمن ذكرها بتلك الواقعة ، أنها قد ماتت (٢) قبل ذلك بعشرين سنة .

لقد كان الحق إلى جانب علي في جميع معاركه ، وما كانت معركة الجمل إلا
إحدى تلك المعارك التي خاض علي غمارها والحق معه بأوضح معانيه ، فقد تمت
له البيعة باتفاق المهاجرين والأنصار وجميع المسلمين من أهل الحل والعقد ، ثم
نكث من بایعه ، فكان على الإمام أن يردّه عن غيه ويردعه عن ضلاله ، وقد

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٢) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٦٤ .

كان الإمام في مواقفه كلها على المحجة الواضحة البيضاء ليلى كنهارها ، فهو يقاتلهم ويعرف أن يضع سيفه ، فإن هذا السيف لم يقع على أحد إلا أدخله النار ، لأنه لا يقع إلا على من يستحقه ، والإمام نفسه يقول : « ما شككت في الحق منذ أريته » .

ويقول : وإني لعلى بينة من ربي ومنهاج من نبي ، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً .

وهو الذي رد على رجل قام إليه بعد معركة الجمل وقال له :

يا أمير المؤمنين أي فتنة أعظم من هذه ؟ ان البدرية - أهل بدر - ليمشي بعضها إلى بعض بالسيف فأجابه الإمام :

ويحك ! أتكون فتنة أنا أميرها ^(١) وقائدها ، والذي بعث محمداً بالحق وكرم وجهه ما كذبت ولا كذبت ، ولا ضللت ولا أضل بي ولا زلت ولا زلت بي ، وإني لعلى بينة من ربي بينها الله لرسوله ، وبينها رسوله لي ، وسأدعي يوم القيامة ولا ذنب لي ، ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم .
حاشا يا أمير المؤمنين إلا أن تكون على الحق ، فقد سبق في لسان الغيب ، وأن أخبر رسول الله عنك ، وكشف عن أحقيتك حيث قال : علي مع الحق والحق مع علي .

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٦٥ .

دور الإمام في معركتي النهروان وصفين

موقف الامام من حرب البغاة :

إن علياً على بيتنة من أمره يعرف أين يضع سيفه ، فلا يضعه إلا في رقاب المستحقين له ، وما وضعه في عنق أحد إلا وأدخله النار ، إنه على الحق الجلي لا يشوبه شائبة ولا يكدر صفوه مكدر ، إن الحرب التي يخوضها الإمام يعتبرها حرباً مقدسة لا يجوز السكوت فيها أو القعود عنها ، ومن قعد عنها فهو شريك الشيطان يخذل بعوده الحق وينصر الباطل ، إنها حرب يعتبر السكوت عنها كفراً بما أنزل على محمد .

فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه : خرج رجل من أهل الشام في صفين بين الصفين ونادى : يا أبا الحسن يا علي ابرز إليّ ، فخرج إليه علي عليه السلام حتى اختلفت أعناق دابتيهما بين الصفين ، فقال : إن لك يا علي لقدماً في الإسلام والهجرة ، فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء فتؤخر هذه الحرب حتى ترى رأيك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترجع إلى عراقك فتخلي بينك وبين العراق ، ونرجع نحن إلى شامنا فتخلي بيننا وبين الشام .

فقال علي عليه السلام : قد عرفت ما عرضت ، إن هذه لنصيحة وشفقة ، ولقد

أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ، إن الله تعالى ذكره لم يرضَ من أوليائه أن يُعصى الله في الأرض وهم سكوت مدعنون لا يأمرّون بمعروف ولا ينهون عن منكر ، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة في الأغلال في جهنم .

ويقول في موضع آخر :

ولإني لعلّى يقين من ربي وغير شبهة من ديني .

معركة صفين :

يمكن أن نقول : إن معركة الجمل هي التي أنجبت معركة صفين ، فهذا الفصل من ذاك الجمل .. فلولا السيدة عائشة ومن سار معها في حرب البصرة لم يكن يدور في خلد معاوية أن يقابل إمام الحق والخليفة الذي تمت له البيعة ، ولكن أم المؤمنين ومعها بعض الصحابة قد خرجوا على علي بعد أن بايعه طلحة والزبير ، فإن خروج معاوية وليس لعلي بيعة مباشرة في عنقه أهون بكثير من الحرب السابقة .

إن معاوية يريد أن يستأثر بالشام ويبقى ملكاً عليها ، إنه قضى زمن الخلفاء الثلاثة والياً عليها ، فكيف يمكن أن يتخلى عنها بهذه السهولة ؟ إنه استبد بها كيف شاء ، وإن كان للخلفاء السابقين سيطرة وحزم على الولاة والأمراء ، فقد كان معاوية في الشام عليه من الحصانة ما ليس لغيره ، لأسباب ليس هنا موضع ذكرها .

إن معاوية قرّة عينه الشام ، وعلي قد انتُخب خليفة للمسلمين ، وليس للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار بعد أن تمت البيعة بإجماع أهل الحل والعقد ، إذن فماذا يكون موقف معاوية إذا جرّده علي عن منصبه ونزعه عن ولاية الشام ؟ لا بد لهذه المشكلة من حل ، ولا بد لهذه العقدة من نقض .. إنه علي الذي يعرف الجور الأموي والاستئثار الظالم الذي يعيش فيه معاوية ، إنه

لن يدعه لحظة واحدة على ولاية الشام ، لأن الظلم قبيح ولا يمكن لعلي أن يقرّ الظلم مهما كان لونه ، ولذا لما بلغ عمرو بن العاص مقتل عثمان ، وكان (بايلة) من أرض الشام ، كتب إلى معاوية : « ما كنت صانعاً فاصنع إذ قشرك ابن أبي طالب (١) من كل ما تملكه كما تقشر عن العصا لحاها » .

إن معاوية وزمرته وكل المسلمين يعلمون رأي علي في إبقاء معاوية على الشام ، إن علياً عنوان العدل والمساواة لا يمكن أن يقرّ طاغوتاً من طواغيت بني أمية على رقاب المسلمين ، ولذا أعلن معاوية الطلب بدم عثمان واتهم علياً في ذلك وأن له يداً في الإجهاز عليه . . وبعد حرب كلامية امتدت شهوراً بين علي ومعاوية كان معاوية خلالها يستعد للحرب ويحيك المؤامرات ويدبر الأمور ليقطب لعلي ظهر المجن ، وقد سخر المال فاشترى به الضائر وأفسد به كل من في نفسه مرض .

معاوية وعمرو بن العاص :

إن معاوية على علم برأي الإمام وأنه لن يدعه على الشام والياً ، فلذا قرر على أن ينهض لمحاربته ، وأخذ يفكر في الأوتاد التي يضع يده في يدها في هذه الظروف العصيبة التي لم يعهدها ابن أبي سفيان من ذي قبل ، إنها ظروف قاسية تريد إخراجهم من الأمرة وتجعله سوقة كسائر الناس على أحسن تقدير ، فلذا التفت ليجد طاغوتاً مثله يعينه على حل مشكلته ، فلم يجد إلا ابن النابغة عمرو بن العاص في فلسطين ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة ، وقدم عليّ جرير بن عبد الله فيبيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك فاقدّم على بركة الله .

عمرو بن العاص وخادمه وردان :

إن عمرو بن العاص يلاحظ المنفعة وينظر أين هي ليقتنصها ، وإنه لن ينال

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٧٠ .

من خلافة علي مقدار نقير ، إنه أقل الناس وأحقهم في نظر علي لأنه يعرفه ويعرف نفسه ، ولا يخفى ذلك على عمرو ، والآن قد أتاه كتاب معاوية فانشرح صدره وارتاحت نفسه ، هذا هو المجد قد أتاه وقد احتاج إليه وإلى مشورته معاوية ، وهو يتمتع بالجند والأموال ويحكم بلاداً واسعة خصبة ، فما عليه لو أجاب طلبه ولبي دعوته ؟ إنها فرصة العمر فلن يدعها عمرو ثم دون أن يفوز بها وينال مأربه منها ، ولكن دون الدخول مع معاوية حرب مع علي قد يطيح فيها رأس معاوية ومعه رأس عمرو ، وهذا في ظني هو عامل التردد - إن كان - فسرره عمرو وأحب إظهاره بصيغة الدين أو الدنيا .

إن ابن العاص لم يكن صاحب دين ولا يفكر بالآخرة حتى يحسب لها حساباً أو تأخذ من تفكيره قليلاً أو كثيراً ، ولكن عمرواً - في نظري - عندما جاءه كتاب معاوية يدعوه إليه برزت أمامه الدنيا بزخرفها وآمالها وعزتها ، وتصوّر أن معاوية تكون له الدولة ويكون له الملك ويفوز عندها عمرو بحصة الأسد ، ولكن في مقابل ذلك هناك ابن أبي طالب الذي لن يقرّ معاوية وسوف يعلن الحرب عليه ويطهر البلاد منه ويريح العباد من شرّه ، فتصوّر أن الدائرة ستدور عليه وسيشمله سيف علي ويلحقه بالأشرار في النار ، فلذا اختلط عليه الأمر وماجت الأفكار في رأسه وأخذ يفكر في ألجمع السبيلين وأنفعهما وأضمنهما له ، وهي القاعدة العامة التي كان يتبعها والميزان الذي يقيس به الأشياء .

ومن هنا نعرف أن ما ورد من أن عمرو بن العاص قد استشار ولديه وخادمه وردان ، ليس على ظاهره وحقيقته كما يرويه المؤرخون ، حيث استشارهم في حوقه بمعاوية ، فأجابه ابنه الأكبر عبدالله بقوله : أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راضٍ ، والخليفان من بعده كذلك ، وقتل عثمان وأنت غائب ، فأقم في منزلك فلست خليفة ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أو شكتما أن تهلكا فتستويا فيها . وقال له محمد : أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل يصغر أمرك ، فالحق

بجهاة أهل الشام واطلب بدم عثمان فإنك به تستميل إلى بني امية . فقال عمرو :
أما أنت يا عبدالله فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد فقد أمرتني
بما هو خير لي في دنياي .

وما ورد من أن وردان خادمه عندما رأى حيرة مولاه ابن العاص قال له :
اعترك الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية
الدنيا بغير آخرة ، فأنت واقف بينهما .

إن هذا السرد لهذا الحوار والجواب لا ينسجم مع نفسية ابن العاص ، فلذا
يحمل على ما قلناه .

وعلى كل حال ، ركب عمرو دابته وضرب وجهها تلقاء معاوية ، والتقى
الشیطان بقريته واتفقا على حرب الإمام .

مهـر الدخول في الحرب ضد علي :

لقد قدم ابن النابغة على معاوية واتفقت كلمتهم على حرب الإمام ، ولكن
ليس لعمرو أن يدع الفرصة تفوته ، إن حرب علي لا بد له من مهـر ، فلذا قال
لمعاوية : اعطني مصر .

فتلكأ معاوية وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟

قال : بلى ، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك ، وإنما تكون لك إذا غلبت
علياً على العراق .

وهنا يدخل سماسرة الباطل وشياطين الإنس ليوقعوا بين الطاغوتين ، فيدخل
عتبة بن أبي سفيان على معاوية ويقول له : أما ترضى أن تشتري عمرواً بمصر
إن هي صفت لك ؟ ليتك لا تغلب على الشام .

وهكذا تمت الصفقة وباع عمرو ضميره وشرفه وبقي عنواناً لكل المتاجرين
بالكرامات في سبيل المنفعة واللذة الخاصة ، هكذا تهاوت كبرياء الرجال وذلت

أمام المنافع والملاذات دون أن تعتنق مبادئها ، عفواً... ان عمرواً تلك مبادئه وقد حافظ عليها .

وتأهب معاوية لقتال أمير المؤمنين بغياً وعدواناً ، ولفّ حوله كل الزمر الفاسدة التي وترها الإسلام في مصالحها الدنيئة وأهلها المشركين ، وسار حتى وصل صفين من أرض العراق في ثلاثة وثمانين ألفاً ، وقد سبق إلى سهولة الأرض وسعة المناخ وقرب الفرات ، وكتب إلى الإمام يخبره بسيره فتوجه علي إلى معاوية حتى نزل صفين .

معاوية وخططه الدنيئة :

ولما وصل معاوية إلى صفين قبل الإمام بعث أبا الأعور السامي بمن معه - وكان على مقدمة جيشه ليحولوا بين الفرات وبين أهل العراق ، وقد أرسل الإمام إلى معاوية : ان الذي جئنا له غير الماء ، ولو سبقناك إليه لم نحل بينك وبينه ، فإن شئت خليت عن الماء ، وإن شئت تناجزنا عليه وتركنا ما جئنا له ، ثم قام معاوية فاستشار أصحابه ، فأبدوا معارضتهم قائلين : نرى أن نقتلهم عطشاً كما قتلوا عثمان ظلماً ، ولكن ابن العاص عارض هذا الرأي ، وأشار على معاوية قائلاً : لا تظن يا معاوية أن علياً يظماً واعنة الخيل بيده وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت دونه خل عن القوم يشربوا .

وأجاب معاوية : لاسقاني الله من حوض رسول الله أن شربوا منه حتى يغلّبوني عليه ... إنها فرصة العمر لابن آكلة الأكباد أن يحتثّ جند العراق ، لقد ظن أنه باستيلائه على شريعة الماء قد تحقق له النصر ، أنه لا يدري من يقاتل ؟ أنه يقاتل سيد الشجعان وأسد الفرسان ، ان أمامه علي بطل الإسلام .

بقي معاوية مصرّاً على رأيه ، ولم يستجب لطلب الإمام عندها وجه الإمام إليه الأشتر مالك بن الحارث ، وجه إليه مالك ، وما أدراك ما مالك ، أنه كما يقول ابن أبي الحديد : لله ام قامت عن الأشر ، لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى

ما خلق في العرب ولا في المعجم أشجع منه إلا استأذه علي بن أبي طالب لما خشيت عليه الإثم .

لقد توجه الأشر وحمل على أبي الأعور حملة كشفت عنه الماء ، وأرسل إلى الإمام : قد غلب الله لك على الماء ، وعندها شمت عمرو بن العاص وقال : يا معاوية ما ظنك إن منعك علي الماء اليوم كما منعه أمس .

ولكنه علي الذي لم يخلق الله مثله ، أن أخلاق النبوة التي تربي عليها ترفع أن تقابل معاوية بمنعه الماء ، فقد جاء لأجل هدف أهم وأعظم ، فلذا فسخ له عن الشريعة موضعاً يستقي الماء ثم دار حوار ، وجرت أحداث وعجز الكلام ، ولم يرتدع معاوية عن غيه ، فدارت المعركة - وقد كان قبل ذلك يبرز الرجل للرجل - وزحف الناس بعضهم إلى بعض ، وقد تميزت ثلاثة من الأيام مع ليلة الهرير حيث كان القتال على أشد ما يكون فقد ارتموا بالنبل والحجارة حتى 'فنيتم' ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت ، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيوف وعمد الحديد فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض هو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً وانكسفت الشمس بالنقع وثار القتام... وضلت الألوية والرايات ، وأخذ الاشر يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، فيأمر كل قبيلة وكتيبة من القراء بالاقدام على التي تليها ، فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد ، فلم يزل الاشر يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، واقتروا عن سبعين الف قتيل في ذلك اليوم ، وتلك الليلة وهي ليلة الهرير المشهورة ، ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى ، والاشر يقول لأصحابه وهو يزحج بهم نحو أهل الشام : ازحفوا قيد رحى هذا ويلقي رحى ، فإذا فعلوا ذلك قال : ازحفوا قاب القوس ، فإذا فعلوا ذلك سأطهم مثل ذلك .

أنه مالك بن الحارث صاحب أمير المؤمنين لم يعد يطبق الحياة حتى ضرب وجهه دابته وقال لصاحب رايته : أقدم فتقدم بها ثم شد على القوم وشد معه

أصحابه فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم فقاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً وقتل صاحب رأيهم ، وأخذ الإمام لما رأى الظفر قد جاء من قبله يده بالرجال .

وإذا أردت أن تعرف مواقف علي وضرباته في هذه المعركة ، إذا نسيت وقع علي في أعداء الله فسيما تقدم من المعارك والغزوات ، فهم إلى بريق سيفه ولعمان سنانه ، وعدّ رؤوس القتلى أنك ستعجب ستقف مدهوشاً مأخوذاً أن يكون في يوم واحد قد قتل خمسمائة من فرسان العرب وشجعانهم .

نقل ابن أبي الحديد عن جابر بن عمير الأنصاري : قال والذي بعث محمداً بالحق ما سمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات والأرض ، أصاب يده في يوم واحد ما أصاب ، أنه قتل فيما ذكر العادون - زيادة على خمسمائة من اعلام العرب يخرج بسيفه منحنياً فيقول : معذرة إلى الله وإليك من هذا ، لقد هممت أن أفلقه ولكن يحجزني عنه إني سمعت رسول الله يقول :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

وأنا أقاتل به دونه فكنا نأخذه فنقتله ثم يتناوله من أيدينا ، فيقتحم به في عرض الصف فلا والله ما ليث بأشد نكابة منه في عدوه .

وإذا أردت أن تعرف أكثر من ذلك ، وعلى يد من يتم النصر ، قف قليلاً عند كتب التاريخ ستبصر علياً وسيفه في يده مشهوراً مقبلاً عليه النصر من كل جانب قف قليلاً ، فسترى معاوية يضع رجله في ركابه ويستعد للهرب ، يقول صاحب الإمامة والسياسة . أقبل الأشتر جريحاً فقال : يا امير المؤمنين خيل كخييل ورجال كرجال ، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه فعد مكانك الذي كنت فيه ، فإن الناس إنما يطلبونك حيث تركوك ، وعندها دعا علي ببغلة التي كانت لرسول الله ﷺ ، ثم تعصب بعمامة السوداء ثم نادى : من يبيع نفسه اليوم يريح غداً يوم له ما بعده ، وإن عدوكم قد قدح كما قدحتم فانتدب له ما بين عشرة

آلاف إلى اثني عشر ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم وتقدموا ، فحمل علي والناس حملة واحدة فلم يبقَ لأهل الشام صف إلا اهدم حتى أفضى الأمر إلى معاوية ، وعلي يضرب بسيفه ولا يستقبل أحداً إلا ولتي عنه ، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه ، فلما وضع رجله في الركاب نظر إلى عمرو بن العاص فقال له : يا ابن العاص ، اليوم صبر وغداً فخر ، قال : صدقت ، فترك الركوب وصبر وصبر القوم معه إلى الليل فبات الناس يتحارسون وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذي فيه البلاء العظيم يوم قتل عمار ...

ولما أصبحوا إذا علي وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم .. فعندها أيقن معاوية بالهلكة وعلم أن علياً يريد استئصاله واجتثاث فساده ، وهذه هي أعلام الفتح قد ظهرت ، فهذا هو الأشر على قاب قوسين من النصر ، لم يبقَ إلا عدو الفرس ويتم الأمر وتنتهي أذيال الباطل إلى الأبد ...

وهنا يطلب معاوية من عمرو ، شريكه في الجريمة ، يطلب منه أن ينفتق خبشه عن أمر يحجز علياً عن إكمال المعركة ، فيقول له : يا عمرو ، إنما هي الليلة حتى يغدو علينا علي بالفیصل ، فما ترى ؟

فيجيبه عمرو : إن رجالك لا يقومون لرجالهم ولست مثله ، هو يقاتلك على أمر وأنت تقااتله على غيره ، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم .

إن هذه المقدمات التي يطرحها عمرو كلها عند معاوية ليس فيها من جديد ، إنه يريد الحل ، يريد أن ينطق به ابن العاص ، إن معاوية يكاد أن يخرج عن مداراة عمرو ، إنه موقف يتطلب السرعة والعجلة .. فيقول له :

يا عمرو ، ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا خرجت منه ؟
قال : بلى .

قال : أفلا تخرج مما ترى ؟

قال : والله لأدعونهم إن شئت إلى أمر افرّق به جمعهم ويزداد جمعك إليك اجتماعاً ، إن اعطوكه ^(١) اختلفوا وإن منعوكم اختلفوا .

قال معاوية : وما ذلك ؟

قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ثم تدعوهم إلى ما فيها ، فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته ، ولئن ردّه ليكفرنه أصحابه .

إنها ضربة أصابت المقتل ، إنها بذرة سيحني علي والحق منها أمر الثار وأنكده ، إنها كلمة دعا لها الإمام قبل المعركة فرفضها القوم ، وهما هي اليوم تعود مبتلة بالدماء ممزوجة بالغدر مموهة باللؤم .

وأصبح الناس من ليلة الهزير ، فإذا أشباه الرايات أمام أهل الشام في وسط الفيلق حيال موقف علي ومعاوية ، فلما أسفر الصبح وإذا هي المصاحف قد ربطت في أطراف الرماح . . وقد شدوا ثلاثة رماح جميعاً وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يسكه عشرة رهط . وأمر معاوية جنود الشام أن يصرخوا ويستغيثوا : يا أبا الحسن ، من لذاريننا من الروم إن قتلنا ؟ الله الله ، البقية ، كتاب الله بيننا وبينكم .

وسمع الإمام النداء ورأى المصاحف في رؤوس الرماح وأعناق الخيل وعرف أنها المكيدة ، عرف أنها بذرة الشر التي تفسد عليه جنده ، وهذا ما حدث .

لقد اختلف جند علي ، فمنهم من يريد ^(٢) مواصلة القتال إلى أن يتم النصر ويقطع رأس الشعبان ، ومنهم من دعا إلى المهادنة ، فقام الإمام خطيباً قائلاً : أيها الناس ، إني أحق من أجب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسامة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ١٠١ .

(٢) ابن أبي الحديد .

أعرف بهم منكم ، صحبتهم صفاراً ورجالاً فكانوا شر صفار وشر رجال ، ويحكم
إنها كلمة حق يُراد بها باطل ، إنهم ما رفعوها ، إنهم يعرفونها ويعملون بها ،
ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ! أعيروني سواعذك وجساجمكم ساعة واحدة
فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبقَ إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا .

علي وأصحاب الجباه السود :

لقد قرر علي بخطبته إكمال الحرب ، ولكن القوم اختلفوا فيما بينهم ، وبرز
من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين بالحديد شاكى السلاح سيوفهم على عواتقهم
وقد اسودّت جباههم من السجود ، يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين
وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين ؛
يا علي ، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ،
فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم .

فأجابهم الإمام : ويحكم ! أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب
إليه ، وليس يحلُّ لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إني
إنما قاتلتهم ليدِينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده
ونبدوا كتابه ، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم ليس العمل بالقرآن
يريدون .

أصحاب الامام وموقفهم من القتال :

ما مرّ كان أحد المواقف المشينة الذي تكلمت فيه هذه الفرقة فأفصحت ..
وهناك مواقف أخرى مخزية سجلها التاريخ في سجل العار والخيانة ، فهذا هو
الأسعث يقول : أجب القوم إلى كتاب الله عز وجل فإنك أحق به منهم ، وقد
أحب الناس البقاء وكرهوا القتال .

وقال آخر : إن هذه الحرب قد أكلتنا وأذهبت الرجال ، والرأي المودعة .

إنها الفرقة التي ما مُني بها جيش فانتصر ، ولا حلت بساحة قوم إلا وأورثتهم الذلّ والهوان .. إنها الكثرة الغالبة من جنس علي ، أحببت المودة وإنهاء القتال ، ويقابلها رأي القائد العظيم أمير المؤمنين وبعض أصحابه ممن كانوا على رأيه وطوع إرادته ، كالأشتر وغيره .

وإزاء هذا الموقف المتصلب من أحب المودة ، أيقن علي أنه لن يتمكن من مواصلة الحرب ، وكيف يمكنه ذلك وقد أحرق به أصحاب الجباه السود يطلبون منه أن يستدعي الأشتر للكف عن القتال — وقد كان الأشتر قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله — ؟ ..

وأنا أنقل هذا الموقف عن هؤلاء القوم الذين لم يمهلوا الإمام إلا مقدار استدعائه للأشتر .. يقول ابن أبي الحديد : قالوا — أصحاب الجباه السود — : فابعث إلى الأشتر ليأتك وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان .

وكان الأشتر قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه الإمام علي بن يزيد بن هانيء وقال : آت ، فأثاه فأبلغه .

فقال الأشتر : اثنتي فقل له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلي عن موقف ، إني قد رجوت الفتح فلا تعجلني .

فرجع يزيد بن هانيء إلى علي بن علي فأخبره ، فما استكمل خبره وانتهى حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم — أصحاب الجباه السود — لعلي : والله ما نراك أمرته إلا بالقتال ! قال : رأيتموني ساررت رسولي إليه ! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعث إليه فليأتك وإلا فوالله اعتزلناك .

فقال علي بن يزيد : ويحك يا يزيد ! قل له : أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت .
فأثاه يزيد ، فقال له الأشتر : ويحك ! ألا ترى إلى الفتح .. ألا ترى إلى ما

يلقون .. ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا ؟ .. أينبغي أن ندع هذا ونصرف عنه ؟!

فقال يزيد : أتحب أنك ظفرت ما هنا ، وإن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يُفرج عنه ويسلم إلى عدوه ؟!

قال : سبحان الله ! لا والله لا احب ذلك .

قال : فإنهم قد قالوا له وحلفوا عليه : لترسلن إلى الأشر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيفنا كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك !

ما أشدها محنة وما أقساها على قلب أمير المؤمنين عليه السلام وقلوب المخلصين للإسلام ! .. إنها شجّة أدمّت قلب الدين وفتحت للشمر أوسع طرقه .

وإزاء هذا الموقف الذي اضطر إليه الإمام ، قام بكل صبر وجلّد ليعلمهم الحقيقة ويُشهد التاريخ أنه لا يرتضي هذه الدعوة ولا يقبل هذه الخدعة ، إن علياً أمير المؤمنين عليه السلام ومن كان بيده أزمة الأمور قد اضطر قسراً عنه لقبول التحكيم ، فلذا قال لجنده معلناً الحقيقة :

أيها الناس ، إن أمري لم يزل معكم على ما احب إلى أن أخذت منكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك وإنها فيهم أنكى وأنهك ، ألا وإني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت منهيماً ، وقد أحببتكم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون .

إنه جرح في قلب علي وحسرة في نفسه وألم في فؤاده .. إنني — وعلى البعد الزمني بيني وبين هذه الكلمات — أشعر عند قراءتها أنها تجرح وتذيب النفس ، إنني أرمق ذلك العظيم ابن أبي طالب فأرى كلماته مملوءة حسرة .. من أمير إلى مأمور .. من كونه ناهياً حق أصبح منهيماً .. إنه على الحق (الحق مع علي

وعلي مع الحق) ، ولكن أنسى له بأصحاب يطيعون إذا أمر ويقبلون قوله إذا أراد ؟!

أمام هذا الأمر الواقع ، رضى علي وقبيل بالتحكيم .

اختيار الحكيم :

لقد كتب علي أمير المؤمنين عليه السلام أن لا يطاع ، وهو إمام الحق .. وما تلك الزفرات التي نفثها وبثها ، والشكاوى التي أطلقها ، إلا نذر قليل مما حواه قلبه وضمته روحه .. ما أصعب أن يرى الإنسان النور والهدى ولا يراه أصحابه ، ومع ذلك يجرؤونه قسراً عنه حيث أرادوا .. إن علياً علي الحق الصراح ، لم يلتبس عليه الأمر منذ ابتدائه إلى ختامه .. إنه علي بينة واضحة لا يشوبها شك ، وقد فرض عليه التحكيم وهو يرفضه ، والآن جاء دور اختيار الحكيم .

أما أهل الشام فقد اختاروا عمرو بن العاص ، وأما أهل العراق فقد قال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : قد رضينا نحن واختارنا أبا موسى الأشعري .

فقال لهم علي عليه السلام : فإني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه .

فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء : إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد كان حذرنا مما وقعنا فيه .

فقال عليه السلام : فإنه ليس لي برضاً ، وقد فارقتني وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمنتته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك .

قالوا : والله ما نبالي ، أكننت أنت أو ابن عباس ، ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية ، سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر .

قال عليه السلام : فإني أجعل الأثر .

فقال الأشعث : وهل سقر الأرض علينا إلا الأشر ، وهل نحن إلا في حكم الأشر ..

قال علي : وما حكمه ؟

قال : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف ، حتى تكون ما أردتَ وما أراد . صلوات الله وسلامه عليك يا أمير المؤمنين ، ألم ينفذ صبرك ؟ وأي إنسان يتحمل ما تحملت ؟ ربيع قرن من الزمن مكفوف اليدين عن حقلك وتراثك ، ثم لما أفضت إليك الخلافة ، وأردت أن تظلل الناس بظل الإسلام وتعيد لهم أيام النبوة الطاهرة وسيرتها المقدسة ، قامت أم المؤمنين هاتكة سترأ ضربه الله عليها معلنة عليك الحرب ، ثم من بعدها ابن آكلة الأكباد ، فيا الله من صبر يوازي الجبال ، وهكذا تكون سيرة العظماء .

فنحن إذا نظرنا إلى هذه المحاورة التي كان أحد طرفيها الإمام ، نرى كيف جار القوم عليه في منطقهم وحكمهم ، وفرض الرجل الذي لم يكن ثقة للإمام ، بل كان له موقف أسود وماض مشوه قبيح بينه الإمام للقوم ، ولكنهم أبوا قبوله وأصروا على ركوب رؤوسهم تعنتاً وعناداً ، حتى انهم رفضوا وجود أحد مع الأشعري ، حتى قال الإمام للأحنف بن قيس الذي عرض ذلك عليه : ان القوم أتوني بعبد الله بن قيس - أبو موسى - مبرنساً ، فقالوا : ابعت هذا رضيعنا به والله بالغ أمره ، وكتبت الصحيفة التي تنبئ عن رضا الطرفين بالتحكيم ، وأخذ على الحكيم (عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثا إليه ، لا يعدوانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطوراً ، وما لم يجدان مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة .. وعلى الحكيم عهد الله وميثاقه ألا يألوا اجتهداً ، ولا يتعمدا جوراً ولا يدخلان في شبهة ولا يعدوا حكم الكتاب ، فإن لم يقبل برئت الامة من حكمها ولا عهد لها ولا ذمة ، هذه بعض بنود الصحيفة ، ثم دعي من يشهد عليها .

الأشتر والصحيفة :

عندما أقف أمام هذا الإنسان - الأشتر - أفق منحياً إجلالاً واكباراً ، وترتفع نفسي ، ويأخذني الاعتزاز بشيعة علي أصحاب المبدأ والعقيدة ، الذين يشهد لهم التاريخ بتلك الوقفات الشجاعة الكبيرة ، انها وقفات المبادئ المقدسة أمام الأصنام الهامدة ، وقفات الناس الرسالين العقائدين أمام خور المائعين والمنحرفين ، وإنني أحس من نفسي اكباراً لهذا العظيم رغم طول الزمن الفاصل بيني وبينه ، وهل تريد أن تعرف موقف الأشتر من الصحيفة ، انه موقف أصحاب الحق اتجاه حقوقهم ، لا تنازل عنها مهما قهروا وغلبوا .

لقد عرضت الصحيفة بعد كتابتها على الأشتر كي يشهد مع الشهود فقال : لا صحبتني بيمينني ولا نفعني بعدها شمالي إن كتبت لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادة أو لست على بينة من أمري ، ويقين من ضلالة عدوي ، ولكني قد رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه ، فإنه لا يدخل إلا في الهدى والصواب .

واجتمع الأشعري وابن العاص في دومة الجندل ، وبعد المحاورة والمداولة بينهما .

قال عمرو : أخبرني ما رأيك يا أبا موسى ؟

قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاءوا .

فقال عمرو : الرأي والله ما رأيت فاقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلم أبو موسى أنه قد اتفق وعمراً على أمر وصدقته على ذلك ابن النابغة ، وقال له : تكلم يا أبا موسى ، فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال له : ويحك والله إني لأظنه خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدّمه قبلك ليتكلم به ، ثم تكلم أنت بعده فإنه رجل غدار ، فرفض الأشعري النصيحة - وتقدم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة ، فلم نر شيئاً هو أصلح لأمرها

ولا ألم لشعشعها من ألا تتباين أمورها ، وقد أجمع رأي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية ، وأن يُستقبل هذا الأمر فيكون شوري بين المسلمين يوتلون أمورهم من أحبوا ، وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم ووتلوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص في مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه ، واحق الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل السكب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، فقال له عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وهكذا دارت معركة التحكيم وأسفرت عن وجهها القبيح المشوه بين حمرة الأشعري وكنبة ابن العاص ، ما أقساه من حكم وما أشد جوره .

ووصلت الأنباء إلى الإمام - وكان في الكوفة منتظراً ما يحكم به الحكمان - فغمه ذلك وساء له ووجم له وخطب الناس ، فكان من جملة خطبته « ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتوهما قد نبذا حكم الكتاب وأحييا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه ، وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية ، واختلفا فيما حكما فكلأهما لم يُرشد الله فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير .

الخوارج بنرة الشيطان وعدم الوعي :

« لا تحكم إلا الله » ظاهرها إيمان انطوت على الضلال والكفر ، بهذا الشعار نادى الخوارج - أصحاب الجباه السود الذين أجبروا علياً بالأمس على قبول التحكيم ، ان سيوفهم التي شرعوها في وجه الإمام طلباً للتحكيم ، ها هي اليوم تشهر من جديد مريدة نقض التحكيم - وكان ذلك قبل أن يحكم الحكمان - انها نفس الجماعة بعينها انقلبت موازينها وانعكست أفكارها ، فها هي اليوم تنادي

بهذا الشعار (لا حُكم إلا لله) الحكم لله يا علي لا لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله .

ما عدا مما بدا حتى ظهر هذا الشعار : انهم أنفسهم يبينون الأسباب : ان الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم وقد كنا زللنا وأخطأنا حين رضىنا بالحكمين ، وقد بان لنا زللنا وخطؤنا ، فرجعنا إلى الله وتبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا ، وإلا برئنا منك .

فقال علي عليه السلام : ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد ، نرجع أليس الله يقول : (أوفوا بالعقود) ... فأبى علي أن يرجع وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من علي وبرى علي عليه السلام منهم .

ثم أن هؤلاء الخوارج قد اتفقوا على الخروج إلى النهروان ، واجتمعت كلمتهم على ذلك فكتبوا إلى أصحابهم بالبصرة ، ان أهل دعوتنا حكمتوا الرجال في أمر الله ورضوا بحكم القاسطين على عباده ، فخالقناهم ونايذناهم نريد بذلك الوسيلة إلى الله ، وقد قعدنا يحسر النهروان وأحبينا أعلامكم لتأخذوا بنصيبكم من الأجر .. وأجابهم جماعتهم على المسير إليهم عاجلاً .

وتجهز الإمام وعسكر لحرب معاوية من جديد - بعد اعلان التحكيم - فأخبر بالخوارج ، فكتب إليهم ينصحهم ويعظهم ، ولكنهم أصرّوا على موقفهم وجمدوا عليه ، وخاف من كان مع الإمام أن يميل الخوارج على نساءهم وذرائعهم ، فأشاروا على الإمام أن يخرج إليهم فينتهي من أمرهم ، ويأمنوا بذلك على أموالهم وأعراضهم إذا توجهوا لقتال معاوية ، ولكن أجابهم الإمام : ان غير هذه الخارجة أهم ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كما يكونوا في الأرض جبارين ملوكاً ويتخذهم المؤمنون أرباباً ، ويتخذون عباد الله خولاً ، ودعوا ذكر الخوارج .

تجاوزات الخوارج :

إن مسيرة الخوارج إلى النهروان واعتزالهم عن صف الإمام ، حز في نفس علي ، ولكنه لا يريد أن يحاربهم ما داموا لم يفسدوا في الأرض ويقطعوا على الناس سبيلهم . ولكن هؤلاء الشرذمة المضلّة التي اشتبه عليها الأمر ، ووقفت ترفع شعاراً (لا حكم إلا الله) قد عاثت في الأرض فساداً ونابدت المسلمين جميعاً . فقد لقيهم عبد الله بن خباب بن الارت على حمار ومعه إمراة وهي حامل . فقالوا له : من أنت ؟

قال : أنا رجل مؤمن .

ثم قالوا له : حدثنا عن أبيك ؟

فقال : إني سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يسي مؤمناً ويصبح كافراً .

قالوا : فماذا تقول في أبي بكر وعمر ؟ فاثني خيراً .

قالوا : فما تقول في عثمان في السنين الأخيرة ؟ فاثني خيراً .

قالوا : فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة ؟

قال : إن علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة .

فقالوا : إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائهم ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً ، فأخذوه وكتفوه ، ثم أقبلوا به وبإمراة وهي حبلى ، حتى نزلوا تحت نخلة فسقطت رطبة منها ، فأخذها بعضهم ففقدوها في فيه . فقال له أحدهم : بغير حلٍ أو بغير ثمن أكلتها ، فألقاها من فيه ، ثم اخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمة فقتله .

فقال له بعض أصحابه : ان هذا من الفساد في الأرض فلقى الرجل صاحب الخنزير فارضاه من خنزيره .

فلما رأى منهم عبدالله بن خباب ذلك قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى ما علي منكم بأس ، والله ما أحدثت حدثاً في الإسلام ، وإني لمؤمن ، وقد أمنتهموني وقلتم لا روع عليكم فجاءوا به وبإمرأته فاضجعوه على شفير النهر على ذلك الخنزير فذبحوه فسال دمه في الماء ، ثم أقبلوا إلى إمرأته فقالت : إنما أنا امرأة ، أما تتقون الله ؟ فبقروا بطنها وقتلوا ثلاثة نسوة ، فبلغ علياً خبرهم فبعث إليهم الحارث بن مرة لينظر فيما بلغه من قتل عبدالله بن خباب والنسوة ، ويكتب إليه بالأمر ، فلما انتهى إليهم ليسألهم خرجوا إليه فقتلوه .

فقال الناس : يا أمير المؤمنين ندع هؤلاء القوم وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ؟ سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدونا من أهل الشام .

إن هذه الشرذمة الضالة قد أفسدت في الأرض وقتلت بغير الحق ، وهي بعد تهدد المسلمين المقيمين بينها ، فكيف يمكن لعملي أن يعطيها ظهره وهي تطعنه ؟ كيف يمكن أن يغادر جنود علي الكوفة وهم يخافون من شر هذه الخارجة على أموالهم وأولادهم ، عندها سار الامام إليهم فاستنطقهم الامام بقتل عبدالله بن خباب ، فأقروا ودارت بينهم وبينه محاورات طويلة ، رجع منهم خلق كثير عن ضلالهم ، ولكن بقي منهم قسم لا بأس به عدة آلاف مصريين على رأيهم ، فلم يرجعوا إلى الهدى الذي أراده الاسلام ، فنادوا الامام وأعلنوا عليه الحرب .

وهنا قرر الامام القضاء عليهم ، فعبا أصحابه ووضع للخوارج راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري ، فناداهم أبو أيوب : من جاء منكم إلى هذه الراية ، فهو آمن ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف إلى العراق وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، فإنه لا حاجة لنا في سفك دمائكم .

ثم قال لأصحابه : كفوا عنهم حتى يبدو لكم ، ولكن الخوارج أقبلوا نحو الناس حتى إذا دنوا منهم نادوا : لا تحكم إلا الله ، ثم نادوا : الرواح الرواح إلى الجنة ثم شدوا على أصحاب الامام شدة رجل واحد ، فاستقبلتهم خيل الامام بالرمح والنبيل ، ثم عطف عليهم من الميمنة والميسرة ، ونهض علي في القلب بالسيف

والرماح ، فلا والله ما لبثوا فوفاً (مقدار حلب الناقة) حتى صرعهم الله ،
كأنما قيل لهم موتوا فماتوا ، وأخذ علي ما كان في عسكرهم من كل شيء ، فأما
السلاح والدواب فقسمه بين جنده ، وأما المتاع والعبيد والاماء ، فإنه حين قدم
الكوفة رده على أهله .

هكذا كانت معركة النهروان ، كأنما قيل لهم موتوا فماتوا ، لم يسلم منهم إلا
دون العشرة ، ولم يقتل من أصحاب الامام إلا دون العشرة ، إنها معجزة حقها
علي في النهروان كما حققها في جميع غزواته .

مواقف بطولية للامام :

إن شجاعة الامام أصبحت مضرب الأمثال ، فله في جميع حروبه مواقف
مشرفة ترفع الرأس ويعلو بها الجبين إذ أعطي من القوة البدنية ، ما لم يعطى
أحد ، فقد سمعنا وسمع العالم بالأبطال والفرسان ، فكان لكل بطل هفوة أو
كبوة أو عثرة في بعض المواقف أو بعض الأحيان إلا الامام ، فإنه السيف الذي
لا يذبو والجواد الذي لا يكتبو ، لم نجده في معركة تردد أو أحجم عن بطل ،
ولا في غزوة فر أو نكص ، بل بالاستقرار التام في جميع حروبه سواء منها ما
كان في حياة النبي ﷺ أو بعده ، أثبتت أن علياً هو أشجع الناس ، وليس
أشجع العرب فقط ، حتى صارت شجاعته كما يقول الطبري في ذخائره :
(معلومة لكل أحد بالضرورة بحيث لا يمكنه دفع ذلك عن نفسه) .

وقد افتخر من وقف بالصف ازاء علي وشهد له بالشجاعة ألد أعدائه
وأخصامه .

يقول ابن الحديد في شرحه للنهج :

افتتبه معاوية يوماً ، فرأى عبدالله بن الزبير جالساً تحت رجله على سريره .
فقال له عبدالله يداعبه : يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت .

فقال له : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر .

قال : وما الذي تنكر من شجاعي ، وقد وقفت في الصف ازاء علي بن أبي طالب .

قال معاوية : لا جرم أن قتلك وباك بيسرى يديه ، وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها .

إنها شهادة الأعداء وكما قيل : والفضل ما شهدت به الأعداء ، وأن لمعاوية شهادات أخرى في حق الامام جرت قهراً عنه أنطقه الله بها لتكون حجة عليه يوم الخصام ، فقد قدم عبد الله بن أبي محجن الثقفي على معاوية .

فقال : يا أمير المؤمنين إني اتيتك من عند الغي الجبان ابن أبي طالب .

فقال معاوية : لله انت تدري ما قلت ؟

أما قولك الغي ، فوالله لو أن ألسن الناس جمعت ، فجعلت لساناً واحداً لكفهاها لسان علي ، وأما قولك أنه الجبان فشككتك أمك ، هل رأيت أحداً قط بارزه على إلا قتله ، وأما قولك ^(١) أنه بخيل ، فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر ، والآخر من تب ، لا نفذ تبره قبل تبره .

فقال الثقفي : فعلام تقاتله ؟

قال : على دم عثمان .

إننا لسنا بحاجة إلى شهادة هذا الطاغية ، إلا لندينه بها ونلزمه باعترافه ، فإن الشجاعة في علي امر تكويني ، لم يخالط قلبه الخوف ، ولم تعرف نفسه الجزع ، لقد كان يملك نفساً كبيرة ، لا توازيها نفوس العالمين ، لقد كانت الأبطال تحتل الهزيمة كما تحتل النصر إلا علي ، فقد كان يعلم ان النصر له وبسيفه يتم ،

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ٩٧ .

فلذا قيل له : يا أمير المؤمنين ، لم لا تشتري فرساً عتيقاً ؟
قال : لا حاجة لي فيه ، وأنا لا أفر^(١) من كره علي ولا أكره علي من فر مني .

إن الشجعان لاحتالها الهزيمة تتخذ فرساً تحتاجها للفرار إن اضطرت إليه وكان خصمها أقوى منها ، أو تكرر بها على خصمها إن كان أضعف منها ، ولكن النفس العلوية الكبيرة تترفع أن تحط من قدرها فتحتمل الهزيمة ، فإن هذا الاحتمال لا يحتمل من نفس علي أية زاوية أو مكان .

وقد كانت الحرب مستعرة والفرسان لا يظهر منهم إلا الحدق خوف السيوف المشرعة والرماح المسلطة ، وعلي وحده يخرج حاسراً غير مبالي ولا مكترث بأصحابها .

سأل رجل ابن عباس : أكان علي عليه السلام يباشر القتال يوم صفين ؟
فقال : والله ما رأيت رجلاً اطرح لنفسه في متلف من علي ، ولقد كنت أراه يخرج حاسر الرأس بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله .
بل كان يطوف بين الصفين في صفين في غلالة ، فقال له الحسن عليه السلام : ما هذا زي الحرب ، فيجيبه الإمام : يا بني ، إن أباك لا يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

كم يبدو الفرق واضحاً بين علي وبين أخصامه الجبناء الذين لا يجرؤون على الوقوف أمامه ، وإن وقفوا على أقدامهم استعانوا بعوراتهم لنجاتهم .

مواقف مُدِلَّة :

فهذا عمرو بن العاص تعرض لعلي عليه السلام يوماً من أيام صفين ، وظن أنه

(١) أمالي الصدوق ، ص ١٠٢ .

يطمع منه في غرة فيصيبه ، فحمل علي عليه ، فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه
عن فرسه ورفع ثوبه وشعر برجله فبذت عورته ، فصرف علي وجهه عنه وقام .
عمرو معفراً بالتراب هارباً على رجله معتمصماً بصفوفه ، فقال أهل العراق : يا
أمير المؤمنين ، اقلت الرجل .

فقال : أتدرون من هو ؟

قالوا : لا .

قال : فإنه عمرو بن العاص تلقاني بسوءته فصرفت وجهي عنه .

ورجع عمرو إلى معاوية فقال : ما صنعت يا أبا عبد الله ؟

فقال : لقيني علي فصرعني .

قال : احمد الله وعورتك ، والله إني لأظنك لو عرفته لما أقحمت عليه .

وقال معاوية في ذلك :

ألا لله من هفوات عمرو	يعاتبني على تركي برازي
فقد لاقى أبا حسن علياً	فأب الوائلي مأب خازي
فلو لم يُبدِ عورته لطارت	بمهيته قوادم أي بازي
فإن تكن المنية أخطأته	فقد غنى بها أهل الحجاز

فغضب عمرو وقال : ما أشد تعظيمك علياً أبا تراب في أمري ، هل أنا إلا

رجل لقيته ابن عمه فصرعه ؟ أفترى السماء قاطرة لذلك دماً ؟

قال : لا ، ولكنها معقبة لك خزيًا .

وهناك موقف آخر من مواقف الخزي والعار يشبه هذا الموقف ، وقفه

الجبان المجرم بسر بن ارطأة .

قال معاوية لبسر بن ارطأة : أتقوم لمبارزته ، أي لمبارزة علي ؟

فقال : ما أحد أحق بها منك ، أما إذا أبيتموه فأنا له .

قال معاوية : إنك ستلقاه غداً ^(١) في أول الخيل .

وكان عند بسر ابن عم له قدم من الحجاز يخطب ابنته ، فأتى بسرأ فقال له :
إني سمعت انك وعدت من نفسك أن تبارز علياً ، أما تعلم ان الوالي من بعد
معاوية عتبة ثم من بعده محمد أخوه وكل من ^(٢) هؤلاء قرن علي ، فما يدعوك إلى
ما أرى ؟

قال : خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه .

وقال : هل هو إلا الموت ؟ لا بد من لقاء الله .

وغدا علي عليه السلام منقطعاً من خيله ويده في يد الأشر وهما يتسيران رويداً
يطلبان التل ليقفا عليه ، إذ برز له بسر مقلّباً بالحديد لا يُعرف فناداه : ابرز
إليّ أبا الحسن . فأنحدر إليه علي على تودة غير مكترث به ، حتى إذا قاربه طعنه
وهو دارع فالتقاء إلى الأرض ومنع الدرع السنان أن يصل إليه ، فاتّقاء بسر
بعورته وقصد أن يكشفها يستدفع بأسه ، فانصرف عنه عليه السلام مستدبراً له ،
فعرّفه الأشر حين سقط فقال : يا أمير المؤمنين هذا بسر بن أرطاة ، هذا عدو
الله وعدوك ، فقال : دعه عليه لعنة الله أبعد أن فعلها ؟ وقام بسر من طعنة
علي مولياً وفرّت خيله ، وناداه علي عليه السلام : يا بسر ، معاوية كان أحق بها
منك . فرجع بسر إلى معاوية فقال له : ارفع طرفك فقد أدال الله عمراً منك
(وقد كان بسر يعيّر عمراً بكشف سواته) .

فهذه مواقف الخزي لأخصام علي عليه السلام . إنهم يستدفعون الموت بعوراتهم
دون حياء أو خجل .. سنّة سيئة ذليلة ابتدأ بها عمرو وثني عليها بسر ، وكان
أحق بها معاوية ، ولكنه كيف يقف إزاء علي ، وهو الجبان الحقير ؟ ومن أين
يأتي بأعصاب تؤهله أن يستقبل سيف ابن أبي طالب ؟

(١) و (٢) ابن أبي الحديد ، ج ٨ ص ٩٦ .

هل غششتني ؟

ففي أحد الأيام قال معاوية لمعمر بن العاص : يا أبا عبدالله ، أفلا أسألك
عن شيء تصدقني فيه ؟

قال : والله ان الكذب لقيح ، فسئل عما بدا لك اصدقك .

فقال : هل غششتني منذ نصحتني ؟

قال : لا .

قال : بلى والله لقد غششتني ، أما اني لا أقول في كل المواطن ولكن في
موطن واحد .

قال : وأي موطن هذا ؟

قال : يوم دعاني علي بن أبي طالب للمبارزة فاستشرتك فقلت : ما ترى يا
أبا عبدالله ؟ فقلت : كفوا كريم ، فأشرت علي بمبارزته وأنت تعلم من هو ،
فعلت انك قد غششتني .

قال : يا أمير المؤمنين ، دعاك رجل الى مبارزته عظيم الشرف جليل الخطر
فكنت من مبارزته على احدى الحسينين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قتال
الأقران وتزداد به شرفاً الى شرفك وتخلو بملكك ، وإما أن تعجل الى مرافقة
الشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

قال معاوية : هذا أسر من الاولى ، والله اني لأعلم اني لو قتلتته دخلت النار
ولو قتلتني دخلت النار .

قال له عمرو : فما حملك على قتاله ؟

قال : الملك عقيم ولن يسمعها مني أحد بعدك .

الفصل الثاني

علم الامام علي عليه السلام

شذرات من كلام النبي ﷺ والصحابة في علم علي عليه السلام

إذا أردنا أن نستعرض كل ما قاله النبي ﷺ في حق الإمام علي عليه السلام وما أشاد به ونوّه لاحتجنا إلى كتاب بانفراد ، كما وقع لكثير من الأصحاب الذين تعرضوا لذلك ، ولكنني أكتفي بذكر بعضها كشواهد من كلامه صلوات الله عليه وكلام أصحابه ، فاركبوا استيعاب ذلك إلى المكان المعدّ له من كتب الحديث والمناقب والتاريخ ، وهذه شهادة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، يبين أن علياً أعلم الأمة وأعظمها :

١ - قال علي عليه السلام لابنته الزهراء : « زوّجتك خير أمتي ^(١) ، أعلمهم علماً وأفضلهم حملاً وأولهم سلماً » .

٢ - قال صلوات الله عليه : « أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب » ^(٢) .

٣ - قال علي عليه السلام : « أقضى أمتي علي » ^(٣) .

والقضاء مرتبة عالية في الإسلام ، إنه منصب الأنبياء والأولياء في حياتهم ،

(١) السيوطي في جمع الجوامع ، ج ٦ ص ٣٩٨ .

(٢) الحوارزمي في المناقب . (٣) كفاية الكنجي .

ومنصب المجتهدين والفقهاء بعد غيابهم .. إنه يحتاج الى كثير من العلوم فيتوقف على الإحاطة الكاملة بمدارك الشريعة ومبانيها، يحتاج إلى النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والاصول والدراية، وإلى استيعاب كامل لعمق الشريعة وإحاطة في معرفة رد الاصول الى الفروع ، كي يقف على حكم الله ويتمكن من استنباطه بما في أيديه من الوثائق المقررة المشروعة .

إن رتبة القضاء ليست وظيفة اعتيادية يتسلقها الأقزام والمتطفلون ، كما نشاهده اليوم من قضاة السوء الذين باعوا حظهم بالثمن البخس فتربّعوا على كرسي القضاء دون أهل أو كفاءة ، وكأن النبي ينظر الى هؤلاء حين قال : « مَنْ عَمِلَ قَاضِياً ذَبَحَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ سَكِينٍ » .

لقد جاء بهم تجار السياسة ليشوّ هوا سمعة القضاء وينزعوا من نفوس الناس تلك النظرة الكبيرة الى هذا المنصب ، وهذا ما نجح به التجار ، فصار لقب القاضي إذا أُطلق على إنسان يعني في عرف الناس انه حليف الجور والرشوة والفساد والابتعاد عن الحق والعدل .

وإذا كان لبعض أصحاب النبي ﷺ من ينفرد في جهة من العلوم — لو ثبت ذلك — حيث اشتهر أحدهم بعلم الفرائض والآخر بالقراءة والثالث بصدق الحديث .. الى آخره .. فقد جمع صلوات الله عليه كل تلك المتفرقات وصاغها في عبارة واحدة وصَفَ بها الإمام عليّ عليه السلام ، ألا وهي قوله : « أقضاكم علي » . وقد برهنت الأيام بعد ذلك أن علياً لم يرجع الى أحد قط ورجع إليه كل من تقدم عليه ، فكان هذا الإخبار من النبي من اعلام النبوة ومستندات صدقها ، وسوف نرى من عجائب قضائه ما يبهر العقول ويحير الألباب .

٤ — وقال ﷺ : « قَسَمْتُ الْحِكْمَةَ ^(١) عَشْرَةَ أَجْزَاءً ، فَأَعْطَيْتُ عَلِيَّ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ وَالنَّاسَ جِزْأً وَاحِداً » .

(١) حلية الأولياء .

٥ - وقال ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها » .

هذا بعض ما ورد عن رسول الله ، وما أكثر ما ورد في حق علي في هذا الباب ، فهل هناك شهادة أعظم وأكبر من شهادة النبي الصادق الأمين ؟ وهذه الأحاديث قد قبلتها الأمة دون غمز فيها أو رد لها ، نقلها أصحاب الصحاح والمسانيد وصححوها وأثبتوها وآمنوا بها ، وهي من أعظم الشواهد وأكبر المواثيق التي تدل على أن الإمام هو أعلم الناس بعد رسول الله .

وقد وردت هذه المضامين السابقة على لسان الإمام نفسه وأعلام الصحابة السابقين :

١ - قال علي ﷺ :

فاسألوني قبل أن تفقدوني ^(١) ، فالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي بآية وتضل بآية إلا أنبأتكم بناءً عليها وقائدها وسائقها ومناخ ركبها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلًا ويموت منهم موتًا .

٢ - وقال ﷺ :

أيها الناس ^(٢) سلوني قبل أن تفقدوني ، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض .

٣ - وقال ﷺ :

سلوني قبل أن تفقدوني ، هذا سبط العلم ، هذا لعاب رسول الله ﷺ وهذا ما زقني رسول الله ﷺ زقًا ، فاسألوني فإن عندي علم الأولين

(١) نهج البلاغة ، خطبة ٩٢ .

(٢) » » » ١٨٨ .

والآخرين ، أما والله لو ثبتت لي الوسادة ثم اجلس عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم في بحكم الله .. وفي رواية : حتى ينطق الله التوراة والإنجيل ويقول : يا رب إن علياً قضى بقضائك .

ثم قال عليه السلام : سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي فلق الحبة وبرء النسمة ، لو سألتهموني عن آية ، في ليل انزلت أو في نهار ، مكيتها ومدنها وسفريها وحضرها ، ناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وتأويلها وتنزيلها ، لأخبرتكم .

٤ - وقال عليه السلام :

بل اندجت (١) على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشية (الحبل) في الطوي (البشر) البعيدة .

٥ - وقال عليه السلام :

ولقد كنت أتبعه (لنبي) اتباع الفصيل اثر امه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه (٢) علماً ويأمرني بالاعتداء .

هذه شذرات قليلة نطق بها الإمام عليه السلام متمنياً أن يكون في القوم من يملك قلباً واعياً وعقلاً متفتحاً ، حتى يفصح له عما يحويه من العلم .

إن علياً لم يكن ليقول (سلوني) لو لم يملك الجواب عن كل ما يحتمل أن يُسأل عنه ، (سلوني) بكل عمومها وإطلاقها تشمل جميع العلوم ومختلف الفنون ، لا يشد عنها علم ولا يخرج عن إطارها فن .

وهذه جملة من شهادات الصحابة تبين إمامته على الجميع وتقدهم على سائر المسلمين دون استثناء :

(١) نهج البلاغة ، خطبة ٥ .

(٢) ابن أبي الحديد ، ج ١٣ ص ١٩٧ .

فهذا ابن عباس ، وهو حبر الامة وعالمها ومحدثها ومفسرها ، يُسأل عن علمه بالنسبة إلى علم علي عليه السلام ، فيقول : وما علمي وعلم أصحاب محمد في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر .

ويقول ابن عباس أيضاً : والله لقد أُعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم ، وإيم الله ^(١) لقد شاركهم في العشر العاشر .

وقال ابن مسعود : قسمت ^(٢) الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً ، وعلي أعلمهم بالواحد منها .

وقال أيضاً : أفرض أهل المدينة ^(٣) وأقضاها علي .

وقالت عائشة : علي أعلم الناس ^(٤) بالسنّة .

وقال عمر بن الخطاب : علي ^(٥) أقضانا .

وقال أيضاً كلمته المشهورة : (لولا علي ^(٦) لهلك عمر) .

وقال أيضاً : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن .

وقال معاوية عدو الإمام لما بلغته وفاته : لقد ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب .

وذكر صاحب الرياض النضرة قال : عن أبي حازم قال : جاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة ، فقال : سل عنها علي بن أبي طالب فهو أعلم ، قال : يا امير المؤمنين جوابك فيها أحب إليّ من جواب علي ، قال : بشئما قلت ! لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغزوه بالعلم غزراً ، ولقد قال له : انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي . وكان عمر إذا اشكل عليه شيء أخذ منه .

(١) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) الصواعق وغيره .

(٥) تاريخ الخلفاء ، ص ١١٥ .

(٢) كنز العمال .

(٤) الصواعق ص ٧٦ .

(٦) الاستيعاب وغيره .

وعن شريح بن هانئ قال ^(١) : أتيت عائشة أسأله عن المسح على الخفين ، فقالت : ائت علياً فإنه أعلم بذلك مني .

هذه شهادات كتبتها يد الحقيقة التي تطلع على النفوس والقلوب معلنة للناس ان علياً أعلم البرية وأجدرها ، إنه أكفأها وأعظمها ، هذا علي الذي ما عجز عن مسألة قط ولا سوف في جواب مشكلة أبداً ، بل كان الفارس المجلى الذي لم يعثر في حياته مرة واحدة . . لقد توالى من رسول الله ﷺ السنن التي تشيد بعلم علي ، ووردت الأخبار التي أبانت علو كعبه ورفيع منزلته .

إن الأحاديث التي تقدمت في صدر الكلام تدلّ دلالة صريحة قاطعة ان علياً هو أعلم أصحاب النبي ، فإن رسول الله وأصحابه الذين عايشوا الإمام عرفوا ذلك ولمسوه ، فلذا صرحوا بأعلمية علي وتقدمه على سائر المسلمين ، وقد كان برهان ذلك ساطعاً وآياته واضحة وعلاماته باهرة . . إن أعلمية علي لم تخف على أحد ، وقد برهنت الأيام انه ابن جلاها ، فقد صدر عنه من العلوم ما سبق عصره وفاق دهره ، لم تقتصر أعلمية علي على الفقه وتوابعه ، بل امتدت الى مجالات وحقوق أخرى لم تخطر على قلوب معاصريه ولا مرّت ببالهم .

ونحن سنستعرض مقتطفات من تلك الباقات الخالدة التي نبين فيها رجوع الخلفاء الذين تقدموا عليه إليه ، وهذا الرجوع إنما كان رجوعاً الى الأعم والأعلم أحق بالتقديم ، والخلافة له دون غيره ، فإن من يهدي الى الحق أحق ان يتبع . أما شعب العلم ومتفرقاته فلعللي فيها جولات وقدم راسخة لا تنزل .

(١) رواه مسلم في صحيحه .

رجوع الخلفاء إلى الإمام

إن رجوع الخلفاء إلى الإمام قد تعددت وتكثرت حتى اشتهرت بل تواترت بحيث لم تعد خافية على أحد من الناس ، وكل من راجع كتب السير والحديث بان له ذلك وظهر لكل عين بصيرة ، ونحن ننقل هنا بعضاً منها كشواهد لما قلناه .

رجوع أبي بكر إليه :

ذكر رجال من العامة والخاصة أن رجلاً رفع إلى أبي بكر وقد شرب الخمر فأراد أن يقيم عليه الحد فقال له : إنني شربتها ولا علم لي بتحريمها لأنني نشأت بين قوم يستحلونها ولم أعلم بتحريمها حتى الآن ، فأرتج على أبي بكر الأمر بالحكم عليه ولم يعلم وجه القضاء فيه ، فأشار عليه بعض من حضر أن يستخير أمير المؤمنين علياً عليه السلام عن الحكم في ذلك ، فأرسل إليه من سأل عنه ، فقال أمير المؤمنين : 'مر' رجلين ثقتين من المسلمين يطوفان به على مجالس المهاجرين والأنصار ويناشداهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن شهد بذلك رجلان منهم ^(١) فأقم الحد عليه ، وإن لم يشهد أحد بذلك فاستتمبه وخل سبيله ، ففعل ذلك أبو بكر ، فلم يشهد أحد من المهاجرين

(١) الارشاد للشيخ المفيد ، ص ٩٥ .

والأنصار ، أنه تـلا عليه آية التـحريم ، ولا أخبره عن رسول الله ﷺ بذلك فاستتابه أبو بكر وخلى سبيله وسلم لعلي في القضاء به .

رجوع عمر إلى الامام :

إن رجوع عمر إلى الإمام لا يكاد يخفى على أحد ، وإن أقواله في حق الإمام سمعها الخاص والعام والمؤلف والمخالف ، وتسامعت بها الدنيا من أقطارها ، بل إن الخليفة عمر رجع إلى غير الإمام ، فقد ردّت عليه قوله حق النساء .

ذكر ابن أبي الحديد في شرحه : قال عمر مرة : لا يبلغني أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها ، فقالت له امرأة : ما جعل الله لك ذلك ، أنه تعالى قال : (وآتيتن إحداهن قنطاراً ...) فقال : كل الناس أفقه من عمر حق ربات الحجال ألا تعجبون من إمام أخطأ ، وامرأة أصابت ، فاضلت امامكم ففضلته .

وهناك وقائع كثيرة مدونة في محلها ، واردة بالأسانيد الصحيحة ، أن عمر قد رجع في كثير من قضائه إلى غيره ، بعد أن تبين خطأ ما ذهب إليه ، بل كثيراً ما كان ينقض ما أفق به أولاً ، وعلى حد تعبير ابن أبي الحديد (كان عمر^(١) يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ، ويفتي بضده وخلافه قضى في الجد مع الاخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة .

فقال : من أراد أن يتفحص جرائم جهنم فليقل في الجد برأيه .

وقد كان رجوعه أكثر ما يكون إلى الإمام ، فهناك العديد من القضايا التي أرشده إليها الإمام وهداه إلى حلها حتى أفصح بنفسه ، وأشاد ببلء نفسه (علي أفضانا) (لولا علي لهلك عمر) (لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن) فمن تلك الموارد :

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد ج ١ ص ١٨١ .

١ - أتى عمر بن الخطاب بإمرأة حامل قد اعترفت ^(١) بالفجور ، فأمر برجمها فتلقاها علي ، فقال : ما بال هذه ؟ فقالوا : أمر عمر برجمها فردّها علي وقال : هذا سلطانك عليها ، فما سلطانك علي ما في بطنها ؟ ولعلك انتهرتها أو أخفيتها ؟ قال : قد كان ذلك . قال : أو ما سمعت رسول الله ﷺ قال : لا حدّ علي معترف بعد بلاء ، أنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له ، فخلي سبيلها ثم قال : عجزت النساء أن تكون مثل علي بن أبي طالب ، لولا علي لهلك عمر .

٢ - أتى عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً ، فأمر بها أن ترحم ، فمر بها علي رضي الله عنه فقال : ما شأن هذه فقالوا : مجنونة بني فلان زنت ، فأمر بها عمر أن ترحم ، فقال : ارجعوا بها ، ثم أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أما علمت ؟ أما تذكر أن رسول الله ﷺ قال : رفع القلم عن ثلاث : عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المعتوه حتى يبرأ ، وأن هذه معتوهة بني فلان لعل الذي أتاها ، أتاها وهي في بلائها فخلي سبيلها ، وجعل عمر يكبّر .

٣ - ومنها ما أخرجه ابن عساكر والحافظ الدارقطني : أن رجلين أتيا عمر ابن الخطاب وسألاه عن طلاق الامة ، فقام معهما فمشى حتى أتى حلقة في المسجد فيها رجل أصلع .

فقال : أيها الأصلع ما ترى في طلاق الامة ؟ فرفع رأسه إليه ثم أومى إليه بالسبابة والوسطى ، فقال لهما عمر : تطليقتان . فقال أحدهما : سبحان الله جشناك وأنت أمير المؤمنين ، فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومى إليك فقال لهما : تدریان من هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا

(١) الرياض النضرة .

علي بن أبي طالب أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته وهو يقول : إن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعنا في كفة ، ثم وضع إيمان علي في كفة ، لرجح إيمان علي بن أبي طالب .

رجوع عثمان إلى الامام :

لم يكن عثمان أسعد حظاً من تقدمه كيف وهم بالإجماع أفضل منه وأعلم ، فإذا رجع من هو أفضل منه إلى الإمام ، فكيف يكون حال من هو دونهما في الفضل والعلم ، فإذا كان الخليفةتان عالة على الإمام في هذا الباب ، وقد أذعنا واعترفا بسبقه وتقدمه عليها ، فلا يبقى لعثمان مجال أن يرفع عقيرته أو يدلي بصوت يحتج به وعلي حاضر ، وقد صحح الامام كثيراً من أخطاء عثمان وردّه في كثير من القضايا التي لا تتفق والدين ، أو تكون شاذة بعيدة عن شريعة سيد المرسلين .

١ - ذكر السيوطي في الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى : (ووصينا الانسان بوالديه إحساناً) قال : عن بعجة بن عبد الله الجهمي قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأثاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ قال علي عليه السلام : أما سمعت الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وقال : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) . فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ، فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، وكان من قولها لاختها : يا اخي لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره ، قال : فشب الغلام بعد ، فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به .

٢ إن رجلاً أتى عثمان بن عفان وهو أمير المؤمنين وبهده جمجمة إنسان ميت فقال : إنكم تزعمون النار يعرض على هذا ، وأنه يعذب في القبر ، وأنا قد

وضعت عليها يديّ فلا أحس منها حرارة النار ، فسكت عنه عثمان وأرسل إلى علي بن أبي طالب المرتضى يستحضره ، فلما أتاه وهو في ملأ من أصحابه ، قال للرجل : اعد المسألة فأعادها ، ثم قال عثمان بن عفان : اجب الرجل عنها يا أبا الحسن ، فقال علي : ابتوني بزند وحجر والرجل السائل والناس ينظرون إليه فأتي بهما فأخذهما وقدها منها النار ، ثم قال للرجل : ضع يدك على الحجر ، فوضعها عليه ثم قال : ضع يدك على الزند فوضعها عليه فقال : هل أحسست منها حرارة النار ، فبهت الرجل ، فقال عثمان : لولا علي لهلك عثمان .

الامام علي تلميذ الوحي والنبوة

هذا هو الزمن يصغي بكل مسامعه حيث احس بنغمة جديدة ليس من انغام الأرض والجانها ، انه يتنصت لطمس بعيد لم يعده منذ زمان سحيق ، وتسائل عن سر تلك الهمسات التي سرت إلى روحه فانهشتها ، وإلى وجدانه فاعاد له الحياة تسائل وفتش فمثر على حفيف اجنحة بين السماء والأرض ، إنهسا الملائكة التي خفت لخدمة رسول الله وحفظه وصيانيته ، انه نور النبوة في الأرض ، قد جذب سكان السماوات إليه واقتادها لتكون تحت امره ورهن إشارته .

انه بيت في احضان مكة ضم اعظم لإنسان على وجه الأرض ، انه الانسان الذي اختاره الله لحمل رسالته فاغدى عليه من بركاته تربية وتهذيباً وتأديباً وتعليماً وهببط رسالة السماء على قلب محمد ، فكانت مطالعها اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، هكذا شاء الله ان يكون مفتتح هذه الرسالة علم ومعرفة .

لقد تنزل القرآن على قلب محمد والتقطه القلب الأمين آية آية ، وحرص على كل حرف من حروفه او حركة من حركاته ، انه رسول الله تنزل عليه الملائكة بوحى السماء وكلمات الله ، فازدهر بيته وقللاً ولمع لأهل السماء ، كما لمع لأهل الأرض ، انه محمد اليتيم الذي فقد اباه وامه ، وعاش مرارة اليتم والامه قد بشعه الله رسولا .

وفي ذلك الكنف الطاهر والعبقات النبوية العطرة، شاء الله لانسان ان يرافق مسيرة النبوة من خطوتها الاولى - بسل ما قبلها - ويتفتح قلبه للحن السماوي يردده جبرائيل للنبي ويلقيه رسول الله لهذا الفتى المتوقد الذي قطرة قطرة وجرة جرة ، انه علي ... علي بن ابي طالب الذي افاض عليه النبي من بركاته ما جعله اولى الناس به واحقهم بمنصبه بعد رحيله عن عالم الفناء .

لقد فتح علي عينه على محمد ، ومن هو محمد؟ انه رسول الله الذي اختاره الله لمثل اعظم اطروحة سماوية لأهل الأرض ، انه رسول السماء يحمل رسالة الاسلام هذا الدين الشامل الكامل المستوعب لجميع شعب الحياة ومتفرعاتها، وما تنطوي عليه من المفاهيم والقيم ، وما تتمخض عنه من احداث ووقائع ، محمد خلاصة الانسانية وزبدة هذا العالم ، انه الانسان الرسول الذي مثلت تعاليم الله بمخاطباتها واقام بها خير قيام ، ولقد كان صلة الوصل بين الله والانسان ، فأنزل الله على قلبه اشرف كتاب بأشرف بيان ، انه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنه القرآن بما يحويه من عناصر البقاء والدوام قد سكب في قلب محمد ، وبما فيه من تشريعات واحكام وسنن وقوانين قد رسخت في نفس محمد حتى جاء محمد كما اراد الله لأحب رسله واصفاهم واعظمهم واقوامهم ، لقد استوعب النبي جميع احكام القرآن وبلغها إلى الناس ، وقد كان الامام هو الظل الوحيد للنبي الذي لا يفارقه ليلاً او نهاراً ، انه معه في خلوته ومعه في سفره معه حيث حل وابن ارتحل .

لقد تدرج الامام شيئاً فشيئاً ، وهبط القرآن على قلب النبي فأخذ يلقيه احكامه وآياته آية آية حتى استوعب مدلول آيات الله على يد النبي ، فلم تشذ آية إلا وعلي يعرف معناها ، يعرف اين نزلت ومن نزلت وفي اي وقت نزلت ، انه علي الذي عايش القرآن طيلة السنوات التي كان يتنزل فيها ، فيأخذه من مصدره الاصيل دون واسطة احد ، انها المباشرة المستمرة في اخذ آيات الله بحيث دعت الأيام علياً ان يفصح عن ذلك ويعلن قائلًا: ما من آية إلا وقد علمت فيمن نزلت

واين نزلت في سها او في جبل ، وان بسين جوانحي لعلما جما ، سلوني قبل ان تفقدوني ، فإنكم إن فقدتموني لم تجدوا من يحدنكم مثل حديشي .
 إذن فقد تربى علي في ظلال القرآن ونشأ على يمانه ولسانه حتى أصبح هذا الكتاب هو القبة التي اثرت في حياته ، فصاغته صياغة فريدة ، لم يعهد العالم شبيهاً له ، لقد كان للقرآن في حياة علي اثر كبير ، إذ جعلت منه النموذج الكامل الذي خلقه البيان الالهي والمدرسة الاسلامية ذات الطابع المميز والملاحح الخاصة .
 إن هذه السنين المتطاولة التي عاشها الامام في كنف النبي يغدق عليه رسول الله من بحر عطائه وهو يستزيد ويحرص اشد الحرص على العلم ، وان لا تفوته فرصة إلا ويستفيد منها حتى قيل له : مالك اكثر اصحاب رسول الله ﷺ حديثاً ؟ قال : إني كنت ^(١) إذا سألته أنبأني ، وإذا سكت ابتدأني .

إن علياً عليه السلام قد صاغه النبي كما احب واراد حتى جاء صورة مثالية لأحلام النبوة الأمانة ، فمنذ نعومة اظفاره أدبه وصقل نفسه ودربه على الايثار والمحبة والعدل والاخاء مع كل ما مر فيه النبي خلال دعوته ، كان فيها الامام قصوره الأحداث وتجعل منه المؤهل الوحيد لخلافة محمد ، فيما إذا انتابه شيء او اصابه مكروه .

إن علياً عايش الوحي الالهي بصفائه وطهره ، وعاش النبوة بما فيها من اقوال وأفعال وتصرفات ، فانطبعت سمات ذلك وملاحه على كلامه وتصرفه ، حتى اضحى ظلاً حاكياً لوحى الله ولرسوله الأمين ، وطبيعي ان يكون من عاش في تلك الظلال القرآنية ، وتلك الأفياء المحمدية ان يكون في قمة الكمال والمرتقى الرفيع الذي لا يدانيه إنسان آخر في هذا العالم ، لا يدانيه علماً ولا عملاً ولا جهاداً ولا غير ذلك من فصول الحياة وملاحمها الرائعة .. وقد ثبت ان علياً عليه السلام اعلم اصحاب النبي وأفقههم ونحن سنستعرض بعض تلك التفوقات التي جعلت منه إمام الجميع ومطمح أنظار الصحابة في زمن النبي وبعد وفاته .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ج ١ ص ٦٦ .

ابن يزيد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المجذوم والأبرص يؤمان المسلمين؟ قال: نعم، قلت: هل يبتي الله بهما المؤمن؟ قال: نعم، وهل كتب البلاء إلا على المؤمن ويدل على جواز إمامة الأجدم والأبرص واختلف الأصحاب فيهما فقال الشيخ في النهاية والخلاف: بالمنع منه مطلقاً وقال المرتضى وابن حمزة بالكراهة، والشيخ في المبسوط وابن البراج وابن زهرة بالمنع إلا لمثلهما، وقال ابن إدريس يكره إمامتهما فيماعداء الجمعة والعيدين، أما فيهما فلا يجوز. والمسئلة لا تخلو من إشكال، وإن كان الجواز مع الكراهة قوياً.

٧٧- المحاسن: عن أبيه، عن العباس بن معروف، عن علي بن مهزيار، عن ابن أبي عمير، ورواه أبي، عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا، عن أحدهما عليه السلام في مسافر أدرك الإمام ودخل معه في صلاة الظهر قال فليجعل الأولين الظهر والأخيرتين السبحة، وإن كانت صلاة العصر جعل الأولين سبحة والأخيرتين العصر (١).

بيان: السبحة النافلة ويدل على جواز اقتداء المسافر بالمقيمين وجعل الأخيرتين في العصر فريضة لكراهة النافلة بعد العصر كما ذكره الشيخ، وقد ورد جواز اقتداء الصلاتين بواحدة منهما.

٧٨- فقه الرضا: قال عليه السلام: فإن أنت تؤم الناس فلا تطوّل في صلاتك، وخفّف فإذا كنت وحدك فتقلّ ماشئت فأنها عبادة (٢).

وقال: قال العالم عليه السلام: لا ينبغي للإمام أن ينفتل من صلاته إذا سلم حتى يتم من خلفه الصلاة (٣).

وسئل عن رجل أمّ قوماً وهو على غير وضوء، قال: ليس عليهم إعادة وعليه هو أن يعيد (٤).

(١) المحاسن: ٣٢٦.

(٢) فقه الرضا: ٩ س ١٦.

(٣-٤) د س ١٠ ذيل الصفحة.

وبجوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق
وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المستنزفون ، وعميون لا ينضبه الماتحون ، ومناهل لا
يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ... جعله الله رياء لعطش
العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ،
ونوراً ليس معه ظلمه ، وحبلاً وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته ، وعزاً لمن
تولاه ، وسلاً لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذراً لمن انتحل به ، وبرهاناً لمن
تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفليحاً لمن حاج به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطية
لمن عمله ، وآية لمن تومم ، وجنة لمن استلأم ، وعلماً لمن دعى وحديثاً لمن روى
وحكماً لمن قضى .

وقال عليه السلام :

إن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل^(١) هذا القرآن ، فإنه حبل الله المتين وسببه
الأمين ، وفيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره .

وقال عليه السلام :

واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح^(٢) الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضل
والمحدث الذي لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه زيادة أو
نقصان ، زيادة في هدى أو نقصان من عمى ، واعلموا انه ليس على أحد بعدد
القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا
به على أعدائكم ، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والتفاسق والغبي
والضلال ...

وقال عليه السلام :

وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ،

(١) نهج البلاغة ص ٢٥٤ .

(٢) » » » ٢٥٠ .

واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص .

وقال عليه السلام :

إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به .

هذه بعض النماذج التي نطق بها الإمام وأعرب فيها عن مدى أهمية هذا القرآن وكما كان له عند علي من احترام وتقدير ، فاسمعه في كلماته كيف تخرج كل كلمة من صميم القلب العلوي لتعطي للقرآن حقه وتصفه بما هو أهله ، انظر لتري مدى تغلغل هذا القرآن وآياته في نفس علي وروحه ، إنها الكلمات التي لا تستوعب إلا مقدار طاقتها يبدئها الإمام في وصف القرآن ، فاسمعه حيث يقول : جعله الله رياء لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصالحاء ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة .

سبحانك اللهم قد أعطيت علياً بياناً يقصر عنه الفصحاء ولا يبلغه البلغاء ، إنه علي خريج مدرسة القرآن ، فكيف لا يعيش واقع القرآن وكيف لا يدرك أعماق القرآن وأهميته ؟ لقد نما عوده وشب قوامه على آيات الله وكلماته فقد ملك هذا الكتاب كل شخصية الإمام حتى جاء ترجمة حرفية لمضمونه والمراد منه ، وقد بلغ من اهتمامه به أنه كان وصيته لبنينه وأهله عندما ضربه اللعين ابن ملجم ، فقال لهم : الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم ...

هذا هو اهتمام علي بالكتاب الكريم ، وهذا الاهتمام متفرع عن الفهم العميق لمداول سورته وآياته والمراد منه ، وقد كانت الإمام أعلم الأمة في تفسير القرآن والكشف عن آياته ، إذ أنه واكب رحلة نزوله من بدءنا إلى ختامها ، وقد نوه عليه السلام بذلك حيث قال : فوالذي فلق الحبة وبرء النسمة ، لو سألتهموني عن آية آية في ليل نزلت أو في نهار ، مكيتها ومدنيها وسفريها وحضرها ، فاسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وتأويلها وتنزيلها ، لأخبرتكم .

ويقول عليه السلام : ما من آية إلا وقد علمت فيمن نزلت وأين نزلت في سهل أو في جبل ، وإن بين جوانحي لعلماً جليلاً .

إنه علي الذي توحد في خصاله وأفعاله ، هو وحده الذي وصل الى مداليل آيات الله وكلماته ، إنه وقف على كل آية آية ، فعرف متى نزلت وبمن نزلت والمكان الذي نزلت فيه .

إنه علي الذي عبّر عنه النبي ﷺ بقوله : علي مع القرآن والقرآن مع علي .. وكيف لا يكون كذلك وهو القرآن الناطق وكتاب الله هو القرآن الصامت ؟ .. إن علياً هو المفسر لآيات الله ، لقد زقه النبي العلم زقاً وأغدق عليه من علوم النبوة ما جعله باب مدينة علم الرسول .

إنه علي الذي بنى مدرسة فكرية ترجمت الإسلام عملياً وسلوكياً ، وقد فتح روحه وقلبه للناس ودعاهم إليه كي يعيشوا في ظلال القرآن الذي تربى عليه علي نفسه ، فكان نموذجاً قرآنياً ومدرسة بيانية تلقى كلماتها من قرآن الله وحديث النبي .

لقد عبّر علي عن شدة التحام القرآن في نفسه واهتمامه بهذا الكتاب الكريم ، عبّر بكلمة هي أبلغ ما تكون ، حيث قال : أنا النقطة تحت الباء ، إنه النقطة التي بها ترسم بسم الله الرحمن الرحيم على حقيقتها ، وبدونها لا تستكمل الجملة معناها ولا تؤدّي مدلولها .

إنه علي الذي سكب النبي في قلبه آيات الله ، فجاء علي قرآناً ناطقاً يفسر ويشرح ويبين مدلول الكلمات الإلهية في القرآن الصامت .

يقول ابن عباس ، وهو حبر الأمة والمرجع في التفسير ، ان علياً شرح له في ليلة واحدة من حين أقبل ظلامها إلى حين أسفر صبحها وأطفئ مصباحها ، في شرح الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ولم يتعد إلى السين ، وقال عليه السلام : لو شئت لأوقرت أربعين قرأاً (أو بعيراً) .

معجزة البيان عند علي

لقد أعطى البيان مقاليدَه لأَمير المؤمنين عليه السلام وأسلس له القياد حق أصبح عادة له وسجية ، فهو ابن القرآن وربيب أفصح العرب ، فهل يعوقه تعبير أو يصعب عليه بيان ؟

إنه علي قد تأثر ببيان القرآن ، فجاء حديثه وبيانه في خطبه ورسائله آية في الجمال والبلاغة سبقت أبناء عصره وتخطت زمان وجوده . إنك إذا تأملت قطعة من ذلك البيان العلوي لرأيت عليها نفحات القرآن ظاهرة وملامح الكتاب العزيز بادية ، إنها كلمات من تربى على البيان المعجز - القرآن الكريم - فجاء كلامه معجزاً كوجوده ، حق قيل : ان كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . إن بلاغة نهجه تكشف بوضوح مدى تفاعل علي مع القرآن ، ولم كان للبيان الإلهي سيطرة على لسانه ، حق تراء في فصول نهج البلاغة لا يختلف أوله عن آخره ، وإنك تجد نفس المسحة والأنفاس في كلامه كله وتستطيع أن تكتشف بنوئك بعد ممارسة لكلامه ان هذا من كلامه وهذا ليس من كلامه .

لقد أعطي علي من سعة البيان ما جعله يرسل دون تكلف أو مشقة ، حتى جاء نهجه معجزاً في معناه وفي قوالبه ، وقد اختار الشريف الرضي بعض تلك الخطب وسماها نهج البلاغة ، وإلا فخطب علي أكثر من ذلك بكثير .

ومن طواعية هذا البيان له عليه السلام انه كان يخطب الخطبة بطولها على البدئية

وقد يعجز أئمة البلاغة عن تركيبها في خلواتهم وأوقات انفرادهم ، فمن ذلك ما رواه الكنجي الشافعي في مناقبه :

جلس جماعة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون ، فتذاكروا الحروف وأجمعوا ان الآلف أكثر دخولا في الكلام من سائر الحروف ، فقام الإمام علي عليه السلام فخطب هذه الخطبة على البديهة ، فقال صلوات الله عليه :

حمدت وعظمت من عظمت مننته ، وسبغت نعمته ، وسبغت رحمته غضبه ، وتمت كلمته ، ونفذت مشيئته ، وبلغت قضيته ، حمدته حمد مقررٍ لربوبيته ، متخضعا لعبوديته ، متوصل من خطيئته ، معترف بتوسيعه ، مؤمل من ربه مغفرة تنجيته يوم يشغل عن فصيلته وبنيته ، ونستعينه ونسترشده ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليه .

وشهدت له تشهد خلص موقن ، وفردته تفريد مؤمن متيقن ، ووحدته توحيد عبد مدعن ليس له شريك في ملكه ولم يكن له ولي في صنعه ، جلّ عن مشير ووزير وعون ومعين ونظير ، علم فستر ونظر فخبير وملك فقهر وعصى فغفر وحكم فعدل ، لم يزل ولن يزول ، ليس كمثل شيء وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء ، رب منفرد بعزته ، متمكن بقوة ، متقدّس بعلوّه ، متكبر بسموّه ، ليس يذلّ كنه بصير ، وليس يحيط به نظر ، قوي منيع ، بصير سميع ، حلّيم حكيم ، رؤوف رحيم ، عجز عن وصفه من يصفه ، وذلّ عن نعمته من يعرفه ، قرّب فباعد وباعد فقرّب ، يحيب دعوة من يدعوه ويرزقه ويحبوه ، ذو لطف خفي وبطش قوي ، ورحمة موسعة وعقوبة موجعة ، رحمته جنة عريضة وموئدة ، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة .

وشهدت ببعثة محمد عبده ورسوله وصفيّه ونبيّه وخليفه وحبيبّه ، صلى عليه ربه صلاة تحطيه وتزلفه وتعلميه وتقربه وتدينه ، بعثه في خير عصر وحين فترة وكفر ، رحمة لعبيده .. ختم به نبوته ووضح به حججه ، فوعظ ونصح وبلغ وكدح ، رؤوف رحيم بكل مؤمن رضي ولي زكي ، عليه رحمة وتسليم وبركة

وتكريم من رب غفور رحيم قريب مجيب .

وصيتكم جميع من حضر بوصية ربكم وذكرتكم سنة نبيكم فعليكم
برهة تسكن قلوبكم ، وخشية تذكري دموعكم وتقية تنجيكم قبل يوم يذهلكم
ويبليكم ، يوم يفوز فيه من ثقلت وزن حسنته وخف وزن سيئته ، ولتكن
مسألتكم وملقكم مسألة ذل وخضوع وشكر وخشوع وقوة ونزوع ونسب
ورجوع ، وليفتنكم كل مغتتم منكم صحته قبل سقمه وشبيته قبل هرمه وكبره
وفرصته وسعته وفرغته قبل شغله وغنيته قبل فقره وحضره قبل سفره ، من
قبل يهرم ويكبر ويعرض ويسقم ويسله طيبه ويعرض عنه حبيبه وينقطع عمره
ويتغير لونه ويقل عقله قبل قوطم هو موعوك وجسمه منهوك قبل جسده في نزع
شديد وحضور كل قريب وبعيد قبل شخوص بصره وطموح نظره ورشح جبينه
وخطف عرنيته وسكون حنينه وحديث نفسه وبسكي عرسه ، ويتم منه ولده
وتفرق عنه عدوه وصديقه وقسم جمعه وذهب بصره وسمعه وكفن ومدد ووجه
وجرد وعري وغسل ونشف وسجى وبسط له وهيي ونشر عليه كفته وشد منه
ذقنه وقص وعم وودع عليه وسلم ، وحمل فوق سريره وصلي عليه ، ونقل من
دور مزخرفة وقصور مشيدة وحجر منجدة ، فجعل في ضريح ملحود ضيف
مرصود بلبن منضود مسقف بحامود وهيل عليه غفوه وحشى عليه مدره وتحقق
حانده ونسي خبره ورجع عنه وليه وصفيه ونديته ونسيبه ، وتبدل به قريبه
وحبيبه ، فهو حشو قابر ورهين قفر يسعى في جسمه دود قبرة ويسيل صديده
على صدره ونحره يسحق برمته لحمه وينشف دمه ويرم عظمه حتى يوم حشره
ونشره ، فينشر من قابره وينفخ في صورته ويدعى بحشره ونشوره ، فثم بعثرت
قبور وحصلت سريرة صدور ، وجيء بكل نبي وصديق وشهيد ونطيق ، وقعد
للفصل رب قدير بعبده بصير خير .

فلنكم من زفرة تعنيه وحسرة تقصيه ، في موقف مهيل ومشهد جليل بسين
يدي ملك عظيم بكل صغيره وكبيره عالم ، حينئذ يلجهم عرقه ، ويحصره قلقة

عبرته غير مرحومة وصرخته غير مسموعة وحجته غير مقبولة ، تنشر صحيفته وتبين جريته ، حيث نظر في سوء عمله وشهدت عينه بنظره ، ويده ببطشه ورجله بخطوه وفرجه بلعسه وجلده بمسه ، وتهددته منكر ونكير ، وكشف عن حيث بصير ، فسلسل جيده وغلغل ملكه يده ، وسبق يسحب وحده فورد جهنم بكرب وشدة ، وظل يعذب في جهنم ، ويسقى شربة من حميم تشوي وجهه وتسلخ جلده وتضربه زبينة بمقمع من حديد يعود جلده بعد تضجه كجلد جديد يستغيث فتمرض عنه خزنة جهنم ، ويستصرخ فلم يحجب ندم حيث لم ينفعه ندمه .
نعوذ برب قدیر من شر كل بصير ، ونسأله عفو من رضي عنه ومغفرة من قبل منه فهو ولي مسألتي ومنجح طلبتي .

فمن زحزح عن تعذيب ربه ، جعل في جنته بقريه ، وخلد في قصور مشيئة وملك حور عين وحفدة وطيف عليه بكؤس ، وسكن حظيرة قدس في فردوس وتقلب في نعم ، ويسقى من تسنيم وشرب من سلسبيل قد مزج بزنجبيل ختم بمسك مستديم للملك مستشعر للرسول ويشرب من خمور في روض ممدق ليس ينزف عقله .

هذه منزلة من خشي ربه وحذر نفسه ، وتلك عقوبة من عصي منشأه وسولت له نفسه ، فهو قول فصل وحكم عادل قصص ، قص ووعظ ونص تنزيل من حكيم حميد نزل به روح قدس منير مبين من عند رب كريم على قلب نبي مهتم رشيد وسيد ، صلت عليه رسل سفرة مكرمون بررة عذت برب علم حكيم قدیر رحيم ، من شر عدو لعين رجيم يتضرع متضرعكم ، ويبتهل مبتهلکم ونستغفر رب كل مربوب لي ولكم ، ثم قرأ أمير المؤمنين عليه السلام : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

هذه خطبة رائعة تعطي صورة واضحة عن مدى القدرة البيانية المعجزة عند علي ، ويقول أنه قد خطب خطبة أخرى بدون نقط ارتجالاً أولها :

الحمد لله الملك الحمود، المالك الودود، مصور كل مولود، وموئل كل مطرود،
ساطع المهاد، وموطئ الأطواد، ومرسل الأمطار ومسهل الأوطار عالم الأسرار
ومدر كها، ومدمر الأملاك ومهلكها، ومكور الدهور ومكررها، ومورد
الامور ومصدرها، عم سماحة وكمل ركاه وممل، وطاوع السؤال والأمل
وأوسع الرمل وأرمل .

أحمد حمداً ممدوداً مداه وأوحده كما وحده الأواه، وهو الله لا إله إلا الله
سواه، ولا صاعد لمسا عدله وسواه، أرسل محمداً علماً للإسلام وإماماً للحكام
مسنداً للرعاع، ومعطل أحكام ود وسواع علم وعلم وحكم وأحكم أصل
الاصول ومهد وأكد الوعود وأوعد أوصل الله له الاكرام، وأودع روحه السلام
ورحم آله وأهله الكرام ما لمع رثال وملع رال وطلع هلال وسمع اهلال .

اعملوا رحمكم الله أصلح الأعمال واسلكوا مصالح الحلال واطرحوا الحرام
ودعوه واسمعوا أمر الله دعوه، وصلوا الارحام وراعوها وعاصوا الأهواء
واردعوها، وصاهروا أهل الصلاح والورع، وصارموا رهط اللغو والطمع
ومصاهركم أظهر الاحرار مولداً، وأسراهم سؤددا وأحلام مورداً، وهبا هو
امكم وحل حرمكم مملكتاً عروسكم المكربة وماهر لكم كما مهر رسول الله
ام سلمة وهو أكرم من أودع الأولاد، ومملك ما أراد وما سها مملكه ولا وهم ولا
وكس ملاحه ولا وصم . اسأل الله لكم احسان وصاله ودوام اسعاده، والهم
كلاصلاح حاله والاعداد لمآله ومعاده، وله الحمد السرمد والمدح لرسوله أحمد .

فهذه معجزة البيان تتمخض على لسان علي بالبديهة التي هي أقوى من الاعداد
الطويل من غيره، لقد سمعنا بصحابة النبي وعرفنا عنهم الشيء الكثير، ولكن
أي واحد منهم لم يملك ما ملكه، ولم يعط ما أعطى ابن ابي طالب، ان ذلك
الجيل الذي صنعه القرآن أشرف الأجيال على مسرح التاريخ، وخلاصة ذلك
الجيل وسره يكن في علي إذا جمع غرر الصفات المتفرقة في غيره، يضاف إلى
ذلك ما انفرد به خاصة مما جعله أمام الجميع .

ويكفي لعلي عظمة أن يكون نهج بلاغته خالداً بخلود الدهر ، إذ لو أدت النظر فيه ، وجلت في ربوعه بضع جولات لوجدت البلاغة والفصاحة ، ووجدت الكناية والتشبيه ، ووجدت الحقيقة والمجاز ، ووجدت البيان والمعاني بكل تشعباتها ، والبديع بجميع أنواعه وأصنافه ، ان من له خبرة ببلاغة القرآن وبلاغة العرب يدرك بوضوح وجلاء بلاغة نهج البلاغة وقوة البيان العلوي وعمقه وأدرك إن علياً قد سبق أبناء عصره مما جعل بعض من في قلوبهم غلا وحسداً ، ولم يقفوا على حقيقة علي من أبناء هذا العصر أن يشككوا في نسبة النهج وانتمائه لعلي إذ كان فيه ما لم يكن في زمان علي ، فقد عجز هؤلاء وصعب الأمر عليهم أن يتخطى علي على من سبقه في الخلافة ، فأنكروا مناقبه ، ولم يعلموا أن هذا النهج كله نمط واحد واسلوب واحد وطريقة واحدة تناسق وسطه مع طرفيه ، وابتدأه مع منتهاه مع الجزم ، والقطع ان خطب النهج قد رويت في الكتب المعتبرة قبل وجود والد الرضي جامع النهج بمائتي سنة .

يضاف إلى ذلك ان من تربى على مائدة القرآن ورافق أفصح العرب طيبة وجوده منذ صغره إلى أن قضى حياته مثل ذلك الإنسان لا ينكر عليه مثل ذلك النهج ، وخصوصاً من كان مثل علي الذي جعله النبي باب مدينة علمه وأغدق عليه من بيانه وفضله .

علي وعلم النجوم

لقد أسهم الإمام علي عليه السلام في جميع العلوم الإنسانية ، واعتقادنا بإمامته يقودنا إلى القول بأنه أعلم الأمة بعد رسول الله ﷺ ، ليس في الكتاب والسنة فحسب ، بل في سائر العلوم الأخرى .

وهذا الاعتقاد يتفوقه على جميع الناس وفي سائر الميادين المختلفة قد يبدو عند بعضهم انه أمر يعوزه الدليل والبرهان ، ولكن الأدلة متضاربة والبراهين متعددة ومختلفة ، وقد أثبت الشيعة ذلك في كتبهم الكلامية والعقائدية ، وقد أقرّ بأعلميته الصحابة جميعاً ، وأفصح النبي ﷺ عن ذلك حيث جعله أقضى أمته وباب مدينة علمه ، وقد مرّت بعض الكلمات من الصحابة والتابعين التي اعترِف فيها انه أعلم الأمة بعد النبي ، ثم ان الأحداث التي جرت والسنين التي مرّت في حياة الإمام كشفت عن ذلك بشكل واضح لا غموض فيه ، حتى قال الخليل بن أحمد الفراهيدي مؤسس علم العروض، وقد سئل عن الدليل على إمامة علي ، فأجاب : « احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل إمامته » .

ونحن عندما نتعرض إلى بعض هذه المتفرقات من العلوم المختلفة ، فإنما نقصد بذلك بيان سعة علم الإمام وإلمامه ببراعة وتفوق بجميع العلوم على اختلافها وتعددتها ، وليس مقصودنا هو استيعاب جميع المفردات التي وقعت للإمام

وخاض في عباها وبسّين معضلاتها ، فإن ذلك لا يتأتى في كتاب بل لا بد له من مجلدات .

وليست هذه الشواهد التي نطرحها على هذه الصفحات وليدة اليوم أو من مستحدثاته ، بل نقلتها كتب السير والتاريخ التي دوّنت في الصدر الأول والتي مضى على تأليفها مئات السنين ، ولم تنقلها كتب الإمامية فحسب ، بل نقلها المخالف والمؤلف والشيعة والمعاوند ، وهذا بنفسه يثبت صحتها ووقوعها إذ كانت مورد الاتفاق وملتقى الكلمات .

لم نطرح سعة علم الإمام بحيث يشمل هذه المتنوعات من العلوم ، إلا لنبيّن ان علياً في العلم كان أحد رجلين : إما مبدعاً ومنشئاً له أو سابقاً ومتفوقاً على كل من ادّعى المهارة والتفوق فيه .

وقد كان علم النجوم علماً ذا أهمية انفرد به قليل من الناس ، وكانت المنجم قبل ظهور الإسلام عند بعض المجتمعات تتخذ الملوكة ، فكان هو الذي يوقت للحرب فيدفعهم لخوضها أو الكف عنها ، ولكن بعد أن جاء الإسلام ألغى كل تلك الامور ، فحرّم التنجيم المعطل لفاعلية الله وقدرته وهيمنته على الامور ، فلذا روى عن النبي ﷺ انه قال : من صدّق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل الله على محمد . وما ورد عن الصادق عليه السلام حيث قال : إن المنجم ملعون والساحر ملعون . وما ورد في نهج البلاغة من كلام الإمام عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير الى الخوارج ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا نظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فقال عليه السلام : أتزعّم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف السوء ، وتخوّف من الساعة التي من سار فيها حاق به النصر ؟ فمن صدّق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الإعانة بالله في نبيل المحبوب ودفع المكروه ، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليكَ الحمد دون ربك ، لأنك بزعمك أنت هديته الى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضرر .

ثم أقبل عليه السلام على الناس ^(١) فقال : أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة ، المنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار .. سيروا على اسم الله .

فلا يجوز للمسلم أن يتعلم من التنجيم إلا ما يفيد أو يرد به غائلة المنجمين الذين يدعون سبقهم وأعلميتهم أو يقصدون تضليل الناس عن الطريق الحق . وقد رد الإمام على بعض المنجمين - غير المسلمين - الذين لم يدخل نور الإيمان إلى قلوبهم فاضطروا إلى مباراتهم وردتهم كي يوقفهم على أخطائهم ، وإنهم - إن عرفوا بعض ذلك - فإن الفائدة منه لا تدرك إلا بالإحاطة به إحاطة تامة ، وهذا متعذر على الناس ، والمعرفة الناقصة تسبب التعطيل والتوقف عن النشاط والحركة .

قال سعيد بن جبير : استقبل دهقان أمير المؤمنين عليه السلام من المدائن فقال : تناحست النجوم الطالعات وتناحست السعود بالنحوس ، فإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ، ويومك هذا يوم صعب قد اقترن فيه كوكبان وانكفأ فيه الميزان وانقذ من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان .

فقال عليه السلام : أيها الدهقان المنبئ بالآثار المخوف من الأقدار ، ما كانت البارحة صاحب الميزان ؟ وفي أي برج كان صاحب السرطان ؟ وكم الطالع من الأسد والساعات في الحركات ؟ وكم بين السراري والزراي ؟ فقال الدهقان : سأنظر في الأسطرلاب .

فتبسّم عليه السلام وقال له : ويلك يا دهقان ! أنت مسير الثابتات أم كيف تغضى على الجاريات ؟ وأين ساعات الأسد من المطالع وما الزهرة من التوابع والجوامع ؟ وما دون السراري الحركات وكما قدر شعاع النيرات وكما التحصيل بالغدوات ؟

(١) نهج البلاغة ، ج ١ ص ٧٦ .

فقال الدهقان : لا علم لي بذلك .

فقال علي بن أبي طالب : هل نتج علمك أن انتقل بيت ملك الصين واحترقت دور الزنج وخمد بيت فارس وانهدمت منارة الهند وغرقت سرانديب وانخفض حصن الأندلس ؟ ..

إلى أن قال : قال علي بن أبي طالب : البارحة سعد سبعون ألف عالم وولد في كل عالم سبعون ألفاً واللييلة يموت مثلهم ، وهذا - وأومى بيده إلى سعد بن مسعدة الحارثي وكان جاسوساً للخوارج في عسكره فظن أنه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات - منهم ، فخر الدهقان ساجداً .

إلى أن قال : ثم قال علي بن أبي طالب : نحن ناشئة القطب وأعلام الفلك ، أما قولك انقذ في برجك النيران ، فكان الواجب أن تحكم به لي لا علي ، أما نوره وضياؤه فعندي ، وأما حريقه ولهبه فيذهب عني ، وهذه مسألة عميقة احسبها إن كنت حاسباً .

فقال الدهقان : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنت ولي الله .

فهذه واقعة ولها نظائر وأشباه كثيرة ، فمن هو الذي لقن الإمام هذا العلم ولم يذكر في التاريخ ان تتلمذ على يد أحد غير استاذه رسول الله ؟ ومن أية مدرسة تخرج وبأية ملكة استطاع الإحاطة والتفوق ؟ إنها أسئلة لا تجد جواباً إلا القول بأن علياً كان مدينة علم النبي ، فعلمه مشتق من ذلك المصدر الإلهي والعلم اللدني الذي أفاضه الله على رسوله وتلقاه علي منه .

علي والطاقة الكهربائية

روي أن الإمام علي عليه السلام عندما مرّ بالفرات وقد رأى تدفق مائه قال : لو شئت لاستخرجت من هذا نارا .

هذا فتح علمي لم يقف الناس عليه إلا في القرن العشرين ، لقد أدركه العقل البشري بعد تطواف كثير وأتعاب وجهود مضنية قدم خلالها العرق والدماء والدموع ، إن هذا الفتح العلمي لم يكن وليد الصدفة العشوائية التي يرجع إليها العاجزون ، وإنما كلف حصوله الكثير من المشقات ولم يحصل إلا بعد مرور أزمان كثيرة ، وهو بعد ذلك يعتبر من أهم الاكتشافات وأحسنها خدمة للبشرية .

هذا الاكتشاف العلمي قد سبق إليه الإمام علي وبشر به قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، ولكن أولئك الذين عاشوا مع علي وفي زمنه لم يكن عندهم القابلية التي تستوعب هذا الاكتشاف ، ولا شك أن كثيرين منهم ممن لم يقف على إمامة علي قد استهزأ من هذا الكلام ، وكثيرون منهم قد توجسوا ريبة من هذه الدعوة التي يدّعيها بإخراج النار من الماء .

إن علياً قد ولد لكل الأزمنة ، فهو الخالد الذي عطر وجوده هذا الكون ، إنه كان يقف بين الجموع ويقول لهم : سلوني قبل أن تفقدوني ، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض ، ولكن مع هذا الإلحاح منه والتأكيد على أن يسألوه ، فإنهم يحجمون ولا يقدمون ، إنهم أناس لم يعيشوا العقلية التي تسمح لهم بهذا

التفكير ، وكم كان يحز في نفس علي أن يقول سلوني فلا يجد سائلا ، وإن وجد فإنما يجد اللؤم والخبث من انحرفت نفوسهم وضلّت قلوبهم ، إنه يقول سلوني قبل أن تفقدوني ، فيقوم رجل من تحت منبره ليقول له : أخبرني بما في رأسي^(١) ولحيتي من طاقة شعر ؟ ما أسخفه من سؤال ! إنه يتضمن أشد الاستفزاز والاستهزاء ، إنه سؤال وليد النفاق والانحراف .. ويحييه الإمام : والله لقد حدثني خليلي ان على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك ، وان على كل طاقة من لحيتك شيطاناً يغويك ، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله ﷺ ، وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ يحبو ، وهو سنان بن أنس النخعي .

ومرة اخرى يقف عليه السلام على أعواد منبره ويقول : لو كسرت لي الوسادة لحكت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بالإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، وما من آية من كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى نزلت وفيمن نزلت .

وبدلاً من أن يعرض الناس مشاكلهم على الإمام ويقفوا منه على الحلول الناجمة المفيدة ، يقف أحدهم من تحت منبره قائلاً : يا الله والدعوى الكاذبة ! ويقف الآخر^(٢) في الطرف المقابل ليقول له : أشهد أنك أنت الله رب العالمين ! إنها الكلمات الشاذة التي ضلّت عن الحقيقة ، فتاهت بين الإفراط تارة والتفريط اخرى ، ولم يقفوا على حقيقة علي وجوهه .

(١) ابن أبي الحديد ، ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٢) » » » ج ٥ ص ٤٣٦ .

حكم البغاة عند علي

لم تجرِ قبل خلافة الإمام علي عليه السلام حروب بين أهل القبلة ، إذ لم يحدث ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في عهد الخلفاء الثلاثة ، إذ كانت جميع الحروب التي خاضها النبي والخلفاء كانت بين المسلمين والكافرين ، وقد أوضح النبي حكمها وبيّن معالمها بشكل واضح لا غموض فيه ولا شبهة .

وأما في زمن علي فقد كانت الحرب بين المسلمين أنفسهم ، بين أولئك الذين لزموا الخلافة الشرعية الراشدة بقيادة الإمام علي ، وبين أولئك الخارجين على سلطان هذه الخلافة من الناكثين والقاسطين والمارقين ، وقد اتضحت معالم الحق وهي أكبر من أن تخفى ، فقد كان علي رمز الحق وقطب رحاه ، وقد أخبر النبي عن هذا بقوله : « علي مع الحق والحق مع علي » .

وهذه الحرب قد أخبر النبي بها - كما في مناقب البغوي وغيره - حيث قال لأصحابه : إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله .

فقال أبو بكر : أنا هو .

قال صلى الله عليه وآله : لا .

فقال عمر : أنا هو .

قال صلى الله عليه وآله : لا ، ولكن خاصف النمل - وكان علي عليه السلام قد أخذ نعل

النبي يخلصها - . وها هي الحرب تدق أبوابها بين المسلمين، ويقوم الإمام ليقاتل على تأويل القرآن طبقاً لما أخبر به النبي، فكانت حروبه الثلاثة التي استغرقت أيام خلافته من يومها الأول إلى آخر يوم من حياته، وقد انتصر فيها جميعاً وبين بسيرته وحكمه فيهم حكم المخالفين إلى يوم الدين .

قال الصادق عليه السلام: كان في قتال علي عليه السلام أهل القبلة بركة، ولو لم يقاتلهم علي لم يدر أحد بعده كيف يسير فيهم .

وقد ورد في مناقب ابن طلحة الشافعي : أخذ المسلمون (١) السيرة في قتال المشركين من النبي صلى الله عليه وآله ، وأخذوا السيرة في قتال البغاة من علي عليه السلام ، وكان حكم الإمام فيهم هو التفصيل بين من كان له فئة يرجع إليها وبين من لم يكن له فئة، فقد قال لأصحابه يوم الجمل: لا تتبعوا مولياً ولا تجمروا على جريح ومن أغلق بابه فهو آمن . . بينما في يوم صفين قتل المقلب والمدبر وأجهز على الجريح . فهاتان سيران مختلفتان للنكته التي ذكرناها ، وهي ان أهل الجمل ليس لهم فئة يرجعون إليها وإنما هم بأعيانهم مستهدفون ، بينما كان لأهل صفين فئة يعودون إليها إذا تركوا .

(١) قضاء أمير المؤمنين للتستري ، ص ٢٤٠ .

الإمام والرياضيات

جلس رجلان يتغذيان مع أحدهما خمسة أرغفة^(١)، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعوا الغذاء بين أيديهما مر بهما رجل فسلم فقالا: اجلس للغداء، فجلس وأكل معهما واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم وقال: خذا هذا عوض مما أكلت لكما ونلت من طعامكما، فتنازعا وقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم ولك ثلاثة، فقال صاحب الثلاثة الأرغفة: لا أرضى إلا أن تكون الدرام بيننا نصفين، وارتفعا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقضا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخيظه أكثر من خبرك فارضى بثلاثة.

فقال: لا والله لا رضيت منه إلا بمر الحق، فقال علي رضي الله عنه: ليس لك في مر الحق إلا درهم واحد وله سبعة، فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين هو يعرض على ثلاثة فلم أرضى، وأثمرت علي بأخذها فلم أرض، وبقول لي الآن: أنه لا يجب في مر الحق إلا درهم واحد، فقال له علي: عرض عليك صاحبك الثلاثة صلحاً، فقلت: لم أرض إلا بمر الحق، ولا يجب لك بمر الحق إلا واحد.

(١) الاستيعاب ج ٢ ص ٤٦٢.

فقال الرجل : فعرفني بالوجه في مر الحق حتى أقبله .

فقال علي رضي الله عنه : أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ، ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً ، ولا الأقل فتحملون في أكلكم على السواء .

قال : بلى .

قال : فأكلت أنت ثمانية ، وإنما لك تسعة أثلاث ، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً ، أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة ، وأكل لك واحدة من تسعة ، فلك واحد بواحدك وله سبعة بسبعة .

فقال له الرجل : رضيت الآن .

ذكر الشيخ التسري في كتابه (قضاء أمير المؤمنين عليه السلام) قال :

دخل يهودي على علي عليه السلام وقال : أخبرني عن عدد يكون له نصف وثلث وربيع وخمس وسدس وسبع وثمان وتسع وعشر ، ولم يكن فيه كسر فقال علي عليه السلام : إن أخبرتك تسلم ؟

فقال : نعم .

فقال عليه السلام : أضرب أيام اسبوعك في سنتك ، فكان كما قال ، فلما تحققت المسألة وصحتها ، ولم يكن فيها كسر أسلم .

إن ضرب أيام الاسبوع السبعة في ثلاثمائة وستين أيام السنة ، يصير الحاصل ألفين وخمسمائة وعشرين وله الكسور التسعة النصف ، وهو ألف ومائتان وستون والثلث وهو ثمانمائة وأربعون ، والربع ستائة وثلثون ، والخمس خمسمائة وأربع ، والسدس أربعمائة وعشرون ، والسبع ثلاثمائة وستون ، والثمن ثلاثمائة وخمسة عشر ، والتسع مائتان وثمانون ، والعشر مائتان واثنان وخمسون .

في الحكم الثاني بوجوه ولعلّ هذه الرواية مع قبول قدماء الأصحاب والحكم بصحتها والعمل بها يكفى لإثباته .

فوائد

اعلم أنّه يستحبُّ إعادة المنفرد صلاته جماعة ، إماماً كان أو مأموماً ، وهو متفق عليه بين الأصحاب ، وتدلُّ عليه روايات كثيرة .
ومن صلى الفريضة جماعة فوجد جماعة أخرى ففي استحباب إعادة تأمّل ، وتردّد فيه العلامة في المنتهى ، وحكم باستحبابها في الذكرى ، والترك أحوط وأولى .
و يجوز اقتداء كلِّ الفرائض بالأخرى أداء و قضاء ، واستثناء الصدوق العصر بالظهر لم يظهر لنا وجهه ، ولو صلى اثنان فرادى ، ففي استحباب الصلاة لهما جماعة وجهان أحوطهما المنع ، ولو بادرا المأموم في الأفعال قبل الامام (١) فلا يخلو إمّا أن يكون عمداً أو سهواً ، فإن كان الرفع من الركوع فالمشهور بين الأصحاب أنّه يستمرّ وظاهر بعضهم البطلان ، وظاهر المفيد أنّه يعود إلى الركوع حتّى يرفع رأسه مع الامام ، والقول بالتخيير لا يخلو من قوّة ولعلّ العود أولى ، ولو كان الرفع من السجود عمداً ففيه الأقوال الثلاثة ولعلّ العود إلى السجود أقوى ، وإن كانت في رفع الرأس من الركوع والسجود سهواً فالمشهور وجوب العود وقيل بالاستحباب والأوّل أحوط .
ولو ترك الناسي العود على القول بالوجوب ففي بطلان صلاته وجهان ، والأحوط الاعادة بعد الانتمام ، وإن كانت المبادرة في الركوع أو السجود ، فإن كان الامام لم يفرغ من القراءة الواجبة ، فالظاهر بطلان صلاته وإن كان بعدها أمّ .

(١) يجب على المصلي ادامة الايتمام والمتابعة حتّى يسلم الامام ، لكون الجماعة واجبة بالسنة على ما عرفت ، وعلى هذا لو تقدم على الامام عند الركوع والسجود والرفع منهما عمداً فلا ريب في بطلان صلاته كالذي يترك القراءة عمداً في صلاته ، وأمّا اذا كان لعلّة أو عذر فأراد الانفراد فلا بأس على مامر .

علي والقضاء

لقد امتاز علي عليه السلام بمقدرة فائقة النظر في الكشف عن الامور الغامضة التي لا يستطيع أن يلتفت إليها إلا من أوتي من أطراف الإمامة حظاً ونصيباً ، فإنه عليه السلام أبان أموراً يقف الإنسان أمامها متحيراً مطرقاً ، لا يهتدي وجهها ولا يعرف كيف المخرج منها ، ولقد توصل للكشف عن ذلك بأسلوب يدع الجاني يعترف ويقر بما اقترف وارتكب ، وهذه صفة قد فقدت في الخلفاء المتقدمين عليه إذ رب حكم أبسط من ذلك ، قد عجز القوم عن كشفه ، فكيف بك إذا كانت الامور مشتبهة ومختلطة ، كيف يكون حكمهم وبيانهم ، فإن القوم إذا كانوا لا يهتدون إلى ما هو المراد من كتاب ربهم ، وقد نزل والنبي بين أظهرهم فوقفوا حائرين مضطربين .

فمثلاً سُئِلَ أبو بكر عن قوله تعالى ^(١) : (وفاكهة وأبا) فقال : أي سماء تظلني أو أي أرض تقلني ؟ إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

فإذا كان خليفة المسلمين لا يعرف كلمة (الأب) من قرآن ربه وكتاب نبيه وقد عاصر رسول الله وعاش أيام تنزيل هذا الكتاب العظيم ، فكيف يستطيع أن يحل سائر ما يعترض سبيله من المشاكل والامور التي تحدث في مجتمع يتد

(١) الكشف وابن كثير في تفسيرها .

طولاً وعرضاً ، ويقع فيه من الأحداث والشؤون ما لا يحصى .

ويُسأل مرة أخرى عن قوله تعالى (١) : (يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك) ، فقال : إني سأقول فيها برأي ، فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، أراه ما خلا الولد والوالد ، فلما استخلف عمر قال : إني لاستحيي الله أن أرد شيئاً قاله ابو بكر .

فهذه نماذج أقدمها بين يدي القارئ الكريم ، وهي نماذج بسيطة جداً يعرفها كل عربي له أدنى الملم بهذه اللغة العظيمة ، وهذا البيان المبين .

وأما عمر فدعنا عن هفواته ، فله مقامات لا يحسد عليها ، فقد تكون قضية واحدة يتكرر منه الحكم فيها بأشكال مختلفة وصور متنوعة .

يقول ابن أبي الحديد : كان عمر يفتي كثيراً بالحكم ، ثم ينقضه ويفتي بضده وخلافه ، قضى في الجد مع الاخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال : من أراد أن يتقحم جرائم جهنم فليقل في الجد برأيه .

هذه هي براءة الخليفة حكم بشيء ثم نقضه وأفتى بضده ، ثم وقف وكأن ليس للإسلام رأي في هذه المسألة ، ولا للشريعة مجال فيها ، ما أعظم الامور وأشد الخطب ، أن يستولي على رقاب الناس ويتقدم للسياسة ، غير ابن أبي طالب الذي كان يقول : (سلوني قبل أن تفقدوني) .

صلوات الله عليكم يا أمير المؤمنين ، لو كانت لغيرك بعض مالك من الصفات والمؤهلات لوضعوه في درجة الأنبياء والمرسلين .

لقد أوتي الإمام عليه السلام قدرة فذة جعلته إماماً للناس ومثلاً أعلى ، تطمح البشرية نحو ذروته ، تترسم خطاه وتهتدي بنهجه ، وتسير وفق سلوكه للوصول

إلى شاطئ، الأمان دون كبوة أو عثرات ، وقد أوضح ما أشكل على الناس
وبتين لهم ما اختلط عليهم ، فأذعن الجميع له دون استثناء حتى أضفى الحلال
لكل المشاكل التي تعترض سبيل البشرية ، ولا يمكننا أن نستوعب كل تلك
الأقضية التي قضى بها أمير المؤمنين، وكل المشاكل التي فصلها وحلها وبتين أحكامها
فإن ذلك يتطلب كتاباً مستقلاً ، وقد وضع علماءنا الأبرار رضوان الله عليهم
كتباً خاصة تناولت هذا الموضوع جملة وتفصيلاً ، ولكن كما يقول الفقهاء : (ما
لا يدرك كله لا يترك كله) . فلذا نقتصر على المامة سريعة كنموذج يقدم وعنوان
نستلهم منه المقدرة الفائقة لهذا الإمام العظيم .

اضرِب رَقبة العبد منها :

إن رجلاً أقبل على عهد علي عليه السلام من الجبل حاجاً ومعه غلام له فأذنب
فضربه مولاه فقال : ما أنت مولاي بل أنا مولاك ، فما زال ذا يتوعد ذا وذا
يتوعد ذا ويقول : كما أنت حتى نأتي الكوفة يا عدو الله ، فاذهب بك إلى أمير
المؤمنين ، فلما أتيا الكوفة أتيا أمير المؤمنين عليه السلام فقال الذي ضرب الغلام :
أصلحك الله هذا غلام لي ، وأنه أذنب فضربته فوثب عليّ ، وقال الآخر : هو
والله غلام لي ، إن أبي أرسلني معه ليعينني ، وأنه وثب عليّ يدعيني ليذهب بمالي
فأخذ هذا يحلف وهذا يكذب هذا ، وهذا يكذب هذا ، فقال الإمام : انطلقا
فتصادقا في ليلتكما هذه ، ولا تجيئاني إلا بحق ، فلما أصبح أمير المؤمنين عليه السلام
قال لقنبر : أثقب في الحائط ثقبين ، واجتمع الناس فقالوا : لقد وردت عليه
قضية ما ورد عليه مثلها ، لا يخرج منها ، فقال لها : ما تقولان فحلف هذا ،
إن هذا عبده ، وحلف هذا إن هذا عبده ، فقال لها : قوما فإني است أراكما
تصدقان ثم قال لأحدهما :

أدخل رأسك في هذا الثقب ثم قال للآخر : أدخل رأسك في هذا الثقب ثم
قال : يا قنبر علي بسيف رسول الله عجل اضرِب رَقبة العبد منها ، عندها أخرج

الغلام رأسه مبادراً ، ومكث الآخر في الثقب ، فقال عليه السلام للغلام : ألسنت
تزعجك أنك لست بعبء ؟ فقال : بلى ، ولكن ضربني وتعدى عليّ ، فتوثق له
أمير المؤمنين عليه السلام ودفعه إليه .

إنها قضية استطاع الإمام فيها كشف الحقيقة ، إنها مسألة نفسية استطاع بها
علي أن يدخل إلى صميم النفس الإنسانية التي تظهر فيها الحقيقة في لحظة من لحظات
غفلتها . أين هو الإنسان الذي أعطى هذه العبقرية المتفتحة كي يعرف وجه الحق
فيها ، فهل اعطى أحد من الناس مثل هذه النظرة الكبيرة التي بها يستطيع أن
يحق الحق ويبطل الباطل . إن علياً وريث النبي الوحيد الذي بقضائه يكون
فصل الحق وعلى يديه تسترجع الحقوق وتحفظ الأموال والأنفس والفروج .

لقد أوتي الإمام المعية وذكاء ، بل إلهاماً لا يقف دونه قضية ، فقد كان إذا
توجه إلى مشكلة حلها بسرعة البرق ، وجاءت كفلق الصبح ، وقد كشف النبي
عن ذلك بقوله : (أقضاكم علي) .

الله أكبر :

دخل أمير المؤمنين عليه السلام المسجد فاستقبله شاب يبكي وحوله قوم يسكنونه .

— فقال علي ما أبكاك ؟

— فقال : يا أمير المؤمنين إن شريحاً قضى عليّ بقضية ما أدري ما هي إن
هؤلاء النفر خرجوا بأبي معهم في سفر ، فرجعوا ولم يرجع أبي فسألتهم عنه ،
فقالوا : مات ، فسألتهم عن ماله ، فقالوا : ما ترك مالا ، فقدّمتمهم إلى شريح
فاستحلّهم ، وقد علمتُ يا أمير المؤمنين إن أبي خرج ومعه مال كثير .

— فقال لهم أمير المؤمنين : ارجعوا ، فرجعوا والفق معهم إلى شريح .

فقال له أمير المؤمنين : يا شريح كيف قضيت بين هؤلاء ؟

فقال : يا أمير المؤمنين إدعى هذا الفق على هؤلاء النفر إنهم خرجوا في سفر

وأبوه معهم ، فرجعوا ولم يرجع أبوه ، فسألته عن ماله فقالوا : ما خلف مالا ، فقلت للفتى : هل لك بيعة على ما تدعي ؟

فقال : لا ، فاستحلقتهم ، فقال أمير المؤمنين : والله لأحكمن فيهم بحكم ما حكم به قبلي إلا داود النبي .

— يا قنبر أَدع لي بشرطة الخميس ، فدعاهم فوكل لكل رجل منهم رجلا من الشرطة ، ثم نظر إلى وجوههم فقال : ماذا تقولون ، أتقولون إني لا أعلم ما صنعت بأبي هذا الفتى ؟ إني إذا لجاهل .

ثم قال : فرّقوهم وغطّوا رؤوسهم ، ففرّق بينهم وأقيم كل رجل منهم إلى اسطوانة — عمود — من أساطين المسجد ورؤوسهم مغطاة بشياهم .

ثم دعا عبيد الله بن أبي رافع كاتبه فقال : هات صحيفة ودواة ، وجلس أمير المؤمنين في مجلس القضاة ، وجلس الناس إليه فقال لهم : إذا أنا كتّبت فكُتِّبوا ، ثم قال للناس : اخرجوا ، ثم دعا بواحد منهم فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ، ثم قال لعبيد الله بن أبي رافع : أكتب إقراره وما يقول ، ثم أقبل عليه بالسؤال .

فقال له أمير المؤمنين : في أي يوم خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم .

فقال الرجل : في يوم كذا وكذا .

قال : وفي أي شهر ؟

قال : في شهر كذا وكذا .

قال : وفي أي سنة ؟

قال : سنة كذا وكذا .

قال : وإلى أين بلغت في سفركم حتى مات أبو هذا الفتى ؟

قال : إلى موضع كذا وكذا .

قال : وفي منزل من مات ؟

قال : في منزل فلان بن فلان .

قال : وما كان مرضه ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم يوماً مرض ؟

قال : كذا وكذا .

قال : ففي أي يوم مات ومن غسله ومن كفنه ؟ وبم كفنتموه ومن صلى عليه ؟ ومن نزل في قبره . فلما سأله عن جميع ما يريد كبر أمير المؤمنين عليه السلام وكبر الناس جميعاً ، فارتاب أولئك الباقون ولم يشكّوا أن صاحبهم أقر عليهم وعلى نفسه ، فأمر أن يغطى رأسه وينطلق به إلى السجن ، ثم دعا بآخر فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه .

وقال أمير المؤمنين : كلا زعمتم إني لا أعلم ما صنعتم ؟

فقال الثاني : يا أمير المؤمنين ما أنا إلا واحد من القوم ، وقد كنت كارهاً لقتله فأقر ، ثم دعا بواحد بعد واحد كلهم يقر بالقتل ، وأخذ المال ثم ردّ الذي أمر به إلى السجن ، فأقر أيضاً فألزمهم المال والدم .

إن هذه القضية إحدى قضايا علي التي كشف وجه الحق فيها ، وقد استعمل فيها كتابة الإقرار واخذ من المتهم ، وهذا باب قد فتحه علي ، فكان أول الرواد الذين أرادوا تحقيق العدالة وبسط نفوذ الحق بأي الطرق والسبل كان . . إنه أسلوب من أروع أساليب احقاق الحق والكشف عن وجه القضية الكامل . . فإن كان القوم صادقين فيما يدعون فستوافق شهاداتهم وأقوالهم ، وإلا فستختلف وتباين ، وعندها تكشف الجريمة ويتضح الصبح لذي عينين .

واكتفي بذكر هذا من قضاء علي ، ومن أراد المزيد من ذلك ، فما عليه إلا أن يعود إلى كتاب (قضاء أمير المؤمنين) لشيخنا التستري ، فإن فيه الكثير من الامور المشكّلة والقضايا المعقدة التي حلها الإمام ، وأبان حقيقتها كما هي .

وروى العامة عن علي عليه السلام أن المرأة لا تحتفز في الصلاة بالفاء والزاء أي تتضمن
وقد سبق أن الرجل لا يحتفز أي لا ينضم بعضه إلى بعض .
وروى ابن بكير عن بعض أصحابنا قال : المرأة إذا سجدت تضمنت ، والرجل
إذا سجد تفتح ، ولم يزد في التهذيب على هذه الأخبار (١) وهي غير واضحة الاتصال
لكن الشهرة تؤيدها .



(١) التهذيب ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥ ط نجف .

فأراه إياها ، وكان ميثم يأتيا فيصلي عندهما ويقول : بوركك من نخلة لك خلقت^(١) ولي غديت .

ولما كان زمن عبيد الله بن زياد أدخل عليه فقال له ابن زياد : أين ربك ؟
قال ميثم : بالمرصاد لكل ظالم وأنت أحد الظالمين .

قال ابن زياد : إنك على عجمتك لتبلغ الذي تريد . ثم قال : أخبرني ما أخبرك صاحبك اني فاعل بك .

قال ميثم : أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم إلى المطهرة ، وأنا أول خلق الله ألجم في الإسلام .
قال ابن زياد : لنخالفنه .

ولكن مشيئة الله أبَت أن يخالف الدَّعي ما أخبر به الإمام ، فقد أمر بصليب ميثم في نفس المكان الذي أشار إليه أمير المؤمنين على نفس الجذع ، وبعد أن رفعوه على الخشبة أخذ يحدث بفضائل بني هاشم .
فقبل لابن زياد : قد فضحككم هذا العبد .

فقال : الجموه ، وكان أول خلق الله ألجم في الإسلام .
ورويت قصة استشهاد هذا الثائر بشكل آخر ، أروينا لتكون شاهداً وعزماً لصمود الثائرين والمدافعين عن الحق على مدار التاريخ ، وملخصها :

(١) البحار ج ٤٢ ، وابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٩٣ .

ان ابن زياد قال لميثم : لتبرأَن من علي ولتذكرَن مساوئه .. أو لأقطعَن يديكَ ورجليكَ ولأصلبنكَ .

فبكى ميثم ، فقال ابن زياد : بكيت من القول دون الفعل ؟
فقال ميثم : والله ما بكيت من القول ولا من الفعل ، ولكنني بكيت من شك كان دخلني يوم أخبرني سيدي ومولاي .

فقال ابن زياد : وما قال لك ؟

قال ميثم : قال لي أمير المؤمنين : والله لتقطعن يداك ورجلاك ولسانك ولتصلبن .

قال ابن زياد : والله لأقطعن يديكَ ورجليكَ ولأدعنَ لسانكَ حتى اكذبكَ واكذب مولاكَ .. فأمر به ففقطعت يداه ورجلاه ثم اخرج وامر به أن يصلب ، فننادى بأعلى صوته : أيها الناس ، مَنْ أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب ؟ فاجتمع الناس وأخذ يحدثهم ، وبينما هو كذلك إذ خرج عمرو بن حريث وهو يريد منزله فقال : ما هذه الجماعة ؟ قيل : ميثم التمار يحدث الناس عن علي بن أبي طالب ، فانصرف مسرعاً فقال لابن زياد : أصلح الله الأمير ، بادر فابعث إلى هذا مَنْ يقطع لسانه ، فإني لست آمن أن تتغير قلوب أهل الكوفة فيخرجوا عليك .

فالتفت ابن زياد عندها إلى حرسه فوق رأسه قائلاً له : اذهب فاقطع لسانه .

قال : فأتاه الحرسى وقال له : يا ميثم ، قال : ما تشاء ؟ قال : اخرج لسانك فقد أمرني الأمير بقطعه .

قال ميثم : ألا زعم ابن الامة الفاجرة انه يكذبني ويكذب مولاي ؟ !
فقطع لسانه ...

٢ - وأخبر الإمام كذلك باستشهاد رشيد^(١) الهجري ، حيث روى زياد ابن النصر الحارثي قال : كنت عند زياد إذ أتني برشيد الهجري فقال له زياد : ما قال لك صاحبك - يعني علياً عليه السلام - أنا فاعلون بك ؟ قال : تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني ، فقال زياد : أما والله لا كذب حديثه ، خلوا سبيله ، فلما أراد أن يخرج قال زياد : والله ما نجد شيئاً شراً مما قاله له صاحبه ، اقطعوا يديه ورجليه واصلبوه .

فقال رشيد : هيهات ! قد بقي لي عندكم شيء أخبرني به أمير المؤمنين عليه السلام . فقال زياد : اقطعوا لسانه .

فقال رشيد : الآن والله جاء التصديق لأمير المؤمنين .

٣ - ومنها : أن الحجاج بن يوسف الثقفي قال ذات يوم : احب أن اصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب فأقترب إلى الله بدمه ، ف قيل له : ما نعلم أحداً كان أطول صحبة لأبي تراب من قنبر مولاة ، فبعث في طلبه فأتي به فقال له :

أنت قنبر ؟

قال : نعم .

قال : أبو همدان ؟

قال : نعم .

قال : مولى علي بن أبي طالب ؟

قال : الله مولاي وأمير المؤمنين علي ولي نعمتي .

قال : أبرأ من دينه .

قال : فإذا برئت من دينه تدلني على دين غيره أفضل منه ؟

(١) البحار ج ٤٢ ص ١٢٥ ، وابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٩٤ .

قال : إني قاتلك فاختر أية قتلة أحب إليك .

قال : قد صيرت ذلك إليك .

قال : ولم ؟

قال : لأنك لا تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها ، وقد أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام

أن ميتي تكون ذبحاً ظلماً بغير حق .

قال : فأمر به فذبح .

٤ - ومنها ما حدث به هرثة بن سليم قال : غزونا مع علي بن أبي طالب غزوة صفين ، فلما نزلنا بكر بلاء صلى بنا صلاة ، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها ثم قال : واهاً لك أيتها القربة ، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب .

وبهر هرثة وظل حديث الإمام يراوده في كل فترة ، وكان منكراً له ، فلما رجع إلى زوجته جرداء بنت سمير ، وكانت من شيعة علي ، حدثها بما سمعه من الإمام ، فقالت له : دعنا منك أيها الرجل ، فإن أمير المؤمنين لم يقل إلا حقاً .

ولم تمض الأيام حتى بعث ابن زياد يحيوشه لحرب ربحانة رسول الله ﷺ ، وكان فيهم هرثة ، فلما انتهى إلى كربلاء ورأى الحسين عليه السلام وأصحابه تذكّر قول الإمام أمير المؤمنين ، فكره حربه وأقبل على الإمام الحسين وأخبره بما سمعه من أبيه ، فقال له الإمام : معنا أم علينا ؟

فقال : لا معك ولا عليك ، تركت أهلي^(١) وولدي وأخفاف عليهم من ابن زياد .

فنصحه الإمام وقال له : وكلّ هارباً حتى لا ترى منا مقتلاً ، فوالذي نفس

(١) رقعة صفين ، ص ١٥٧ .

محمد بيده ، لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا إلا أدخله الله النار .

وانهزم هزيمة من كربلاء ولم يشهد مقتل الإمام الحسين .

٥ - ومنها قوله ~~عن الصادق~~ لأهل الكوفة : أما انه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد ، فاقتلوه ولن تقتلوه . . ألا وإنه سيأمركم بسبّي والبراءة مني ، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرّوا مني فإنني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة .

وقد جاء ما أخبر به أمير المؤمنين طابق النعل بالنعل والقذة بالقذة ، فقد تقلد معاوية كرسي الخلافة الإسلامية بالقهر والغلبة ، وأذاق المسلمين المرات وجرتهم الآلام ، وقد حلّ بشيعة علي ما يحلّ عن الوصف ولا يقدر القلم على تدوينه .

نعم ، لقد استولى الطاغية الاموي على رقاب العباد والبلاد وفعل ما أخبر به الإمام ، فقد سبّ علياً ولعنه على منابر المسلمين التي شيدت بسيف علي وجهاده ، وكتب إلى الآفاق بذلك حتى أصبح سبّ الإمام ولعنه سنة يتداولها الناس ويقفون في وجه من يهملها .

فهذا هشام بن عبد الملك لما حجّ بالموسم ^(١) وترك سبّ علي قام إليه إنسان فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يوم كانت الحلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب ، فقال له هشام : اكفف فما لهذا جئنا .

بل كان شتم علي ولعنه يعدّ من المناقب للقبائل ، فهذا أحدهم يذكر وهو في مقام تعداد مناقب قومه ، يقول : وما منّا رجل يُعرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل ^(٢) وزاد ابنه حسناً وحسيناً وأمها فاطمة ، فيصدقه الوالي على

(١) ر (٢) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٧ .

ذلك ويقول له إنها منقبة .

بل ازداد الأمر وتفاقم حتى وصل إلى أن يتحاشى أحد تسمية وليده باسم علي ، وإن سمي بذلك 'عدّ عقوقاً' عقه به والده .

يذكر ابن أبي الحديد ^(١) أن الحجاج لعنه الله ، كان يلحن علياً ويأمر بلعنه ، فقال له متعرض به يوماً وهو راكب : أيها الأمير ان اهلي عقوبي فسموني علياً فغير اسمي وصلني بما اتبلغ به فإني فقير .

وازداد الأمر ووصلت الحال إلى درجة أنه إذا أراد الرجل ان يحدث عن علي لا يجرأ ان يذكره باسمه ، بل يكفي فيقول عن ابي زينب :

واما البراءة منه فقد قدمت من دونها النفوس والمهج ، وأرخصَ في سبيلها الغالي والنفيس ، فكان الفرد الترابي يأبى ان ينطق بذلك — مهما كلفه الأمر — وسيكلفه نفسه ، إذ فوق رأسه يقف الجلاد وبيده السيف ينتظر امر الوالي لتنفيذ إرادته ، إذ لم يبادر إلى اعلان البراءة من علي ، وقد تحصّلت قائمة واسعة بتعداد الشهداء الذين سقطوا وهم على اشد ما يكون من الإصرار على ولاية علي والحب له .

نعم قد اشتدت نقمة الظالمين على شيعة علي ، وكلما اشتدت وتفاقت كان المسلم الشيعي يقابلها بجرأة اشد وإصرار أكّد وإيمان أقوى ، إذ كان يحمل النفس العلوية التي نشأ عليها امير المؤمنين وبذرهما الإسلام في نفسه ، فهي شاحنة تأبى الذل والهوان ، وترفع ان تلوي جيدها امام الولاة الطواغيت مهما كان تجبرهم وتكبرهم وظلمهم وعلوهم ، وبهذا الصمود الرائع كانت كل قطرة دم من الشهداء تحرك انفساً حرة للتأثر لها والاقتصاص من اهدرها — وإذا اردنا ان نقف على نماذج من ذلك الشموخ والإباء ، فما علينا إلا ان نطلّ بنظرنا نحو تلك الفترة

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٧ .

السكاخة المظلمة التي تعقبت استشهاد علي لنرى الإفذاذ من الأبطال ، وقد 'توجت' حياتهم بالشهادة بعد جهاد مرير وكفاح ، مستميت في سبيل الحق والعدالة والإيمان والحرية .

١ - فهذا كميل بن زياد يطلبه ^(١) الحجاج فيهرب من وجهه حقناً لدمه ، ولكن هذا الطاغية يقوم بعمل إجرامي لم يشهد التاريخ مثله ، إذ منع قومه عطاءهم وضيق عليهم وتنامى قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . إن كان لكميل البطل من ذنب ، فلما رأى كميل ذلك قال : أنا شيخ كبير قد نفذ عمري لا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم ، فخرج إلى الحجاج ، فلما رآه قال له : لقد أحببت أن أجد عليك جميلاً ، فقال له كميل : انه ما بقي من عمري إلا القليل فاقض ما أنت قاض ، فإن الموعد الله ، ولقد أخبرني أمير المؤمنين علي عليه السلام انك قاتلي ، قال : بلى ، قد كنت فيمن قتل عمر ، أضربوا عنقه فضربوا عنقه .

٦ - وهذا هو حجر بن عدي الكندي الذي مثل النموذج الأكمل للإنسان الواعي حيث وقف أمام طغيان معاوية وجبروته وقفة شجاعة ، تحدث بها الزمن ورددتها الأيام بكل اكبار واعزار ، وافتخرت الإنسانية إذ علمت أن فيها أمثال حجر ممن يمتن الطغاة ويقدم نفسه وابنه في سبيل قضية آمن بها فملك عليه كل ما يملك ، هذا العبد الصالح سيّر من بلده - العراق - إلى مرج عذراء في الشام فصدر أمر معاوية الجائر إلى جلاوزته بالقضاء عليه ، ووقف الجلاذ فوق رأسه قائلاً :

«إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم ، وإن أمير المؤمنين يزعم ان دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم ، غير انه قد عفا عن ذلك ، فابروا من هذا الرجل (علي) نخل سبيلكم » .

(١) الإصابة لابن حجر ج ٥ .

انه الظلم الصارخ والانحراف الواضح أن يكون حجر ، ومن معه من المؤمنين بيد سفاك الامويين الذي لاحق شيعة علي تحت كل حجر ومدر ، وهنا أمام هذا المشهد ، وفي هذا الموقف قد يتخيل ان الأمر سهل فليبرأ حجر ويخلص نفسه من الموت الذي أحدق به ، ولكن نقول : ان هذا منطق التجار لا الأديان ، منطق النفعيين والانتهازيين ، وليس موقف المسلمين الرساليين المخلصين لمبادئهم وقيمهم ، ان الإنسان يحب مبدأه وعقيدته ، فإذا حيل بينه وبينها استرخص الحياة وأحب طعم المأمة مضافاً إلى ان معاوية قد تذرّع بذلك وهو بخبشه ومكره ، يستطيع أن تتفتت تعليميته عن شرك آخرى يبتدعها ليمتهم بها حجراً ويقضي عليه ، وهنا ابتدر حجر راداً على الجلاد .

« اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك » .

وبهذا الرد من حجر تعينت النهاية ، انه الموت ، ولكن الوقت متأخر ، انه وقت المساء ، فلتتأخر رحلة الموت إلى الغد ، فما هو إلا سواد هذا الليل ، فليتزود حجر ومن معه ، وقام حجر وأصحابه ذلك الليل رهباناً يتبتلون إلى الله يدعونه رغباً ورهباً ، سيرة الإنسان المسلم الذي تعمق الإيمان في قلبه فترجمه حركة وسلوكاً . ورأى القائمون على حراستهم ذلك فقالوا لهم : يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد اطلتم الصلاة وأحسنتم الدعاء ، فاخبرونا قولكم في عثمان ؟

قالوا : هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق .

فقال أصحاب معاوية : أمير المؤمنين كان أعلم بكم .

ثم قاموا إليهم فقالوا : تتبرؤون من هذا الرجل ؟

قالوا : بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه ، عندئذٍ توجهوا لقتلهم فالتفت حجر إلى أصحابه فرأى منهم جزءاً فقال لهم :

« قال لي حبيبي رسول الله ﷺ : يا حجر 'تقتل في محبة علي صبراً ، فإذا وصل رأسك إلى الأرض مادت وانبعث عين ماء فغسلت الرأس ، فجعل أصحابه يشاقتون إلى القتل كما يشاقت الذباب على اللبن ، فقال لهم اصحاب معاوية :

« يا اصحاب علي ما اسرعكم إلى القتل » .

فقالوا : من عرف مستقره سارع إليه .

وكان مع حجر ولده همام ، وحين اريد قتل الأب طلب من الجلاد قائلا : ان كنت امرت بقتل ولدي فقدّمه ، فقدّم وضرب عنقه .

فقبل الحجر : تعجلت الشكل .

فقال : خفت ان يرى هول السيف على عنقي فيرجع عن ولاية علي ، فلا نجتمع في دار المقامة التي وعدها الله الصابرين ، ثم قدم حجر للقتل فقبل له : مد عنقك فقال : ان ذلك لدم ما كنت لا عين عليه ، ولكن سيف الجلاد لم يمهله ، بل كانت ضربة اهوت برأس البطل على الثرى وتقاطرت الدماء لترسم صورة للنضال الإسلامي في مواجهة الباطل ، وتتحدى جبروت معاوية وسلطانته ، وتتحول على مر الزمن إلى مواجهة صارخة تزرع في قلوب الطواغيت الرعب والهلع ، فسلام على حجر واصحاب حجر ، وعلى كل قطرة دم سقطت لتزرع بطلاً وتخلق صموداً يتحدى الانحراف والضلال ، وسيدقى قتل حجر إحسدى موبقات معاوية التي تردها الشفاء وتتحدث فيها الأجيال ، فهذا الحسن البصري يقول : اربع خصال كنّ في معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة^(١) انتزاه على هذه الامة بالسيف حتى اخذ الأمر من غير مشورة ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير وادعاه زياداً ، وقد قال رسول الله ﷺ : الولد للفراس وللعامر الحجير ، وقتله حجيراً واصحاب حجر ، فيما ويلا له من حجر واصحاب حجر ، بل ان مقتل حجر اقلق مضجع معاوية نفسه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فقد روى ابن الأثير انه لما حضرت معاوية الوفاة ، جعل يقول : يومي منك يا حجر طويل » ، انه ليس يوماً واحداً ، بل أياماً وسنين متطاولة .

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٣٨٦ .

الفصل الثالث

عدل الامام علي عليه السلام

مقتطفات من العدل في صوت علي

ملأ الظلم أركان العالم ، وأنين المظلومين يعملو وأبصارهم شاخصة إلى الافق
لعلها تبصر شعاعاً يفتح إليها الطريق نحو عدل اجتماعي يرفع عنها سياط الظالمين
وكابوسهم المرهق الثقيل ، وقد ظهر في إحدى الفترات رمز يمثل العدل والهدى ،
إنها ومضة برق أو شعاع تألّقت ثم اختفى ، اختفى وأقفلت أبواب العدالة من
بعده ، ولكن آثاره التي تركها وأقواله التي زرعتها لا تزال تدرّ من الخيرات
والبركات ما لا يقدر ، لا تزال الأجيال ترنو بأعينها لعلها تلتقط من بعيد بعض
تلك الصور المدهشة في عالم العدل والمثل الكامل ، وقد أفصح علي عليه السلام في
منثور كلامه ما أنبأ عن ذلك ، وهذه مقتطفات من عدله برزت في أقواله ،
فكانت شعاعاً دائماً العطاء متصلاً طيلة الأوقات .

١ - من خطبة له عليه السلام :

« ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود ،
فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوّج به النساء وفُرق في البلدان
لردته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيّق » .
(ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٦٩)

٢ - من كلام له عليه السلام لما عوتب على التسوية في العطاء :

« أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ والله لا أطور به ما

سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً ، ولو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ » .

٣ - ومن كلام له عليه السلام :

« والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجرة في الأغلال مصفداً ، أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام » .
(ابن أبي الحديد ج ١١ ص ٢٤٥)

٤ - قال عبد الله بن العباس : دخلت على^(١) أمير المؤمنين عليه السلام بندي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي : ما قيمة هذا النعل ؟
فقلت : لا قيمة لها .

فقال عليه السلام : والله لي أحب إليّ من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً .

(١) الخطبة ٣٣ ص ١٨٥ من شرح ابن أبي الحديد ، الجزء ٣ .

قضية العدالة عند الإمام

لقد عاش الإمام علي عليه السلام أزهى أيام حياته تلك التي كانت في أحضان النبوة ، ترعاه فيها عين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتسدد خطاه على الطريق اللاحظ الذي أَرادَه الله وأحب ، وقد عاش العدل النبوي والرحمة الرسالية إذ كان رسول الله يمثل عدل السماء على الأرض ، ولذا كان الإمام يضعه نصب عينيه لا ينحرف عنه ولا يميل إلى غيره ، إنه العدل المطلق الذي يعطي كل ذي حق حقه دون أن يجور على خلق الله وعباده في قليل أو كثير ، مهما كانت نتائج هذا العدل ومضاعفاته عليه .

ثم انحرف مسار القيادة عنه حتى رأى الجور في أبرز مظاهره يتمثل في زمن خلافة عثمان بن عفان ، إنه الظلم من القيادة إلى القاعدة ، من الرأس إلى الأطراف . لقد عمّ الظلم أقطار البلاد الإسلامية من جرّاء الامويين الذين تسلطوا على رقاب الناس بالقهر والقوة ، لقد تسلطوا على رقاب الناس باسم الإسلام ، وهم أبعد خلق الله عن الدين والإيمان ، لقد مارس عثمان وولاته أبشع أنواع الظلم وأقدره .

عاش عثمان حياة النبي ومارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمام عينيه العدل والمساواة فأخى بين الناس ووحّد صفوفهم ، فكانوا إخوة متساوين في الحقوق والواجبات ليس للعاطفة مجال ولا للهوى دور .. لقد مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قمة العدل

وبين المسلمين السبيل القويم التي يجب أن يهتدوا بها وعلى طريقها تكون مسيرتهم ، ولكن عثمان انحرف عن الخط النبوي الكريم فضعف حتى أطمع الامويين فيه وأخذت العاطفة منه على قرابته مأخذاً كبيراً حتى رأى شرار قومه خيراً من خيار الآخرين .

وإذا أردنا أن نقف على التجاوزات التي ارتكبها الخليفة عثمان والأخطاء التي صدرت منه وهو في قمة الحكم وعلى رأس الدولة ، فما علينا إلا أن نرجع إلى أمهات المصادر التي تعرضت لذلك وألمت به ، وهي مصادر تثبت بالأرقام والشواهد المدي الجائر الذي أصاب المسلمين من جرّاء تهاون الخليفة عثمان وحببه لبني أمية .

وهذه هي بعض الانحرافات وليست كلها :

١ - أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات دون كفاءة فيهم أو حق لهم وأقطعهم القطنع ، فقد افتتحت افريقيا في أيامه فأخذ الخنس كله فوهبه لمروان ، ومَن هو مروان ؟ إنه الوزغ ابن الوزغ لعين رسول الله وطريده .

٢ - الاعطيات التي كان يدفعها لاتباعه وكأنها مال أبيه ، فقد طلب منه عبدالله بن خالد بن اسيد صلة ، فأعطاه أربعمئة ألف درهم .

٣ - أعاد الحكم بن أبي العاص مخالفة لرسول الله ، فقد كانت النبي سيّره طيلة حياته ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر ، وبعد أن أعاده أعطاه مائة ألف درهم .

٤ - تصدّق رسول الله بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور على المسلمين ، فأقطعه عثمان إلى الحارث بن الحكم أخ مروان بن الحكم .

٥ - أقطع لمروان (فدك) ، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه ، تارة بالميراث وأخرى بالنحلة ، فدفعت عنها .

٦ - حمى عثمان المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم ، إلا عن بني أمية .

٧ - أعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب من غير أن يشعر فيه أحد من المسلمين .

٨ - أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال ، في اليوم الذي أمر فيه مروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوجته ابنته أم ابان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكي ان وصلت رحمي ؟! قال : لا ، ولكن أبكي ... إلى أن قال : والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً ، فقال : القِ المفاتيح يا بن أرقم فلما سجد غيرك .

٩ - أثاره أبو موسى بأموال من العراق جلييلة ، فقسّمها كلها في بني أمية ، وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال بعمد صرفه زيد بن أرقم عن خزنته .

١٠ - تسييره الصحابي الجليل ذي اللہجة الصادقة والإيمان العميق أبي ذر الغفاري الذي ورد في حقه من النبي ﷺ ما يجعله إمام الناس والقدوة الصالحة لكل الأجيال ، حتى مات فريداً غريباً بالريضة دون جنازة ارتكبتها أو حق أضاعه .

١١ - ضربه لعبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ، وهو في المرتبة العالية من الفضل والصحة ، حتى مات من جرّاء ذلك .

هذه بعض كبائر عثمان بن عفان ، وقد ظهر منه من تعطيل الحدود والمظالم وغيرها من أعمال السوء التي لو انفرد ببعضها أحد الناس لاستحققت القتل ، فكيف إذا اجتمعت وبالأخص إذا كانت في الخليفة الذي يمثل رسول الله في الحكم والقضاء والنزاهة والعدالة ؟ .

إن عثمان قد أساء استخدام السلطة الصالحة وصالح عشيرته حتى كان أحسن وصف وأليق به ما ذكره الإمام في نهجه في خطبة الشقشقية ، حيث قال :

« إلى أن قام ^(١) ثالث القوم (عثمان) نافجاً حُضْنِيهِ بين نِثْلِهِ ومَعْتَلْفِهِ ، وقام معه بنو أبيه يَخْضُمُونَ مال الله خُضْمَةَ الإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ ، إلى أن انتكث عليه قتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته ، .

إنها صورة واضحة المعالم بارزة الملامح للظلم الاموي الذي عمّ المجتمع الإسلامي ، فبعد أن تولى عثمان الخلافة أطلق أيدي قومه في أموال المسلمين ، فولّس أقرباءه الولايات دون كفاءة فيهم أو سابقة في دين ، إذ «جَلَّ مَنْ ولّاه لم يدخل في دين الله طوعاً بل خوف السيف حفظاً لحياته ومن أجل البقيا لها ، ابتداءً بأبي سفيان شيخ النفاق إلى آخر الطينة الاموية النجسة .. إنها قائمة سوداء يَحْجِلُ القلم عن وصفهم ويترفّع اللسان عن ذكرهم ، إنهم ما بين طريد لرسول الله أو لعين ، وما بين فاسق أو طليق .

إنهم دخلوا في الإسلام خوفاً دون أن يدخل الإسلام في قلوبهم ، فلذا حملوا الشعار الذي يابن المضمون واستغلوا الإسلام لمحق الإسلام ومحوه ، إنهم يحملون الأفكار الجاهلية وعاداتها ، لم يغيّر الإسلام منهم خلقاً ولا خُلُقاً ، وقد أدرك عثمان ذلك وجاءته الشكايات من كل حدب وصوب يستغيثون بالخليفة أن يرفع عنهم ظلم أقربائه وجورهم وعلوهم وتجبرهم ، إنه الظلم الفاسد والجور الذي أجهز على عثمان ، فلقد تمّ الإجماع من قبَل المسلمين على التخلص منه بأية وسيلة وأي سبيل ، ونحن لم نَرِ ثورة على خليفة كما رأيناها على عثمان ، فإن كان الإجماع حجة فباتفاق وجوه المهاجرين والأنصار الذين يمثلون الواجهة التي تعكس رأي الإسلام في أمر من الأمور ، قد تمّ وأجمعوا على الخلاص من الخليفة الاموي ... وهذه شهادات تاريخية نذكرها لبيان الحقيقة :

١ - قال عمر بن الخطاب بعد أن ضرب وهو يشير إلى عثمان بولاية الأمر :

(١) نهج البلاغة ، خطبة ٣ .

الثالث : أن الأمر معلق على الأذان فمن أين ثبت الوجوب مطلقاً .
و الجواب أنه يلزم بصريح الآية الإيجاب مع تحقق الأذان ، و يلزم منه الإيجاب مطلقاً ، مع أنا قد قدّمنا أن الظاهر أن المراد دخول وقت النداء .
و اعترض عليه بوجوه سخيصة أخرى و بعضها يتضمن الاعتراض على الله تعالى إذ لم يرتب متبوع في أن الآية إنما نزلت لوجوب صلاة الجمعة و الحدث عليها ، فقصورها عن إفادة المرام يؤل إلى الاعتراض على الملك العلام ، و يظهر الجواب عن بعضها ممّا قرّرنا سابقاً في تفسير الآيات .
ثم إن أمثال تلك الاعتراضات إنما يحسن ممن لم يستدل في عمره بآية ولا خبر على حكم من الأحكام ، و أمّا من كان دأبه الاستدلال بالظواهر و الإبهامات على الأحكام الغريبة ، لا يليق به تلك المناقشات ، وهل يوجد آية أو خبر لا يمكن المناقشة في الاستدلال بها بأمثال ذلك .

و من العجب أنهم يقولون : ورد في الخبر أن الذكر رسول الله ﷺ فيمكن أن يكون المراد به هنا السعي إليه ﷺ : ولا يعرفون أن الأخبار الواردة في تأويل الآيات و بطونها ، لا ينافي الاستدلال بظاهرها ، فقد ورد في كثير من الأخبار أن الصلاة رجل والزكاة رجل ، وأن العدل رسول الله ﷺ و الاحسان أمير المؤمنين عليه السلام و الفحشاء والمنكر والبغي الثلاثة ، و أمثال ذلك أكثر من أن تحصى ، و شيء منها لا ينافي العمل بظواهرها ، و الاستدلال بها ، وقد حققنا معانيها و أشبعنا الكلام فيها في تضاعيف هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

الثاني : تدل الآية على شرعية الأذان لتلك الصلاة ، و قد مرّ الكلام فيه و المشهور أن الأذان إنما يؤتى به بعد صعود الإمام المنبر ، قال في مجمع البيان (١) في قوله تعالى « وإذا نودي » أي أذن لصلاة الجمعة ، و ذلك إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ، و ذلك لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواه .

ابنك يحامي عنه بالباب ، فقال : ما أكره ان يُقتل عثمان ولو بُدئ به بابني ، إن عثمان لجيفة على الصراط غداً .

٦ - أما عمرو بن العاص فقد ذكر الطبري انه لما بلغ عمرو أن قتل عثمان قال : أنا ابو عبدالله قتلته وأنا بوادي السباع .

وقال عمرو عندما وصله نبأ قتل عثمان : أنا ابو عبدالله إذا حككت قرحة نكأتها إن كنت لأحرّض عليه ، حتى اني لأحرّض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل ...

هذه بعض الشهادات التي تدين عثمان ، وهم من الصحابة وأيضاً بنظر القوم شهود عدول عاشوا أيام الخليفة وعاصروه ومرّت أمامهم كل أعماله وتصرفاته ، أقول هذه بعض الشهادات ، ومن أراد المزيد فعليه براجعة موسوعة الغدير العظيمة التي لم يكتب مثلها ، فقد عدّ فيها شيخنا العظيم أكثر من ثمانين صحابياً قالوا في عثمان ما يمكن به القول .. إنهم كرهوا وجوده وأحبوا الخلاص منه بأيّة وسيلة كانت ، وإن أقوالهم إنما كانت من منطلقات الإيمان والحفاظ على الإسلام الذي أشرفت تعاليمه على الخطر .

نعم ، قد قال الصحابة في الخليفة عثمان فأكثروا فيه القول ، ولا من مدافع عنه إلا العصابة الاموية التي أحاطت به وأوردته موارد .

في هذه الظروف القاسية والأجواء المحمومة وصلت الخلافة إلى الإمام ، وصلت إليه مثقلة بالهموم والآلام ، ممزوجة بيجور الامويين وظلمهم وانحراف الولاة وطغيانهم ، فما كان على الإمام بعد أن عادت إليه الخلافة إلا ان يعيد الحق إلى نصابه ويرفع الظلم والحيف والجور عن المسلمين ، ويعيد للإسلام وجهه الصحيح المشرق في العدالة والتوزيع وللشريعة يدها المباركة التي نعم بها الناس أيام النبوة الكريمة .

لقد اشتاق المسلمون إلى لحظات من عدل السماء ، اشتاقوا إلى تلك الساعات

التي مرت عليهم زمن النبوة ، حيث أحسوا بدفع الإسلام وعدله وخلصوا من ظلم الجاهلية وجورها ، ولا يوجد في الميدان إلا علي ، وهل يمكن لإنسان أن يحسد آمال الإسلام ويحقق لهذا الدين ما ينشده غير ربيب النبي ﷺ ووصيه الإمام علي عليه السلام ؟ ..

وفعلاً قد وصل الإمام إلى كرسي الخلافة ، ولئن كانت يداه غير مبسوطتين من ذي قبل ، فقد أطلقنا الآن وأصبح رئيس الدولة ، فليرفع ظلم الامويين وجورهم عن رقاب الناس وليُعيد الحق إلى نصابه ، فمن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق .

فلذا كان أول عمل قام به انه خطب فقال :

ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوّج به النساء وُفرّق في البلدان لردّته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيّق ...

ثم خطب في اليوم الثاني لبيعته وأعلن تسكّه بالعدالة المطلقة التي شرعها الإسلام دون أن يكون لأحد من المسلمين فضل على أحد ، قائلاً من جملة كلامه : ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً غمّرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارحة واتخذوا الوصائف الرّوقة ، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إذا منعتم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون ، فسينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون : حرّمنا ابن ابي طالب حقوقنا .. ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى ان الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن الفضل النير غداً عند الله وثوابه وأجره على الله .. وأيّما رجل استجاب لله والرسول فصدّق ملتئنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء

وأفضل الثواب ، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خير للأبرار ، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا فإن عندنا ما لا نقسمه فيكم ... ولما كان من الغد وغدا الناس لقبض المال ، قال لعبد الله بن أبي رافع كاتبه : ابدأ بالمهاجرين واعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك ، ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك . فقال سهل بن حنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم ، فقال عليه السلام : نعطيه كما نعطيك ، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل أحداً على أحد .

وتخلف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ... ورجال من قريش وغيرها .

هذه هي المبادئ الأساسية للعدالة الإسلامية قد خطتها علي عملياً بسلوكة ، وهذه هي راية الحق يحملها ابن أبي طالب معلناً تمسكه بها من يومه الأول حتى آخر نفس من حياته .

نعم قد تخلفت عن العطاء هذه الزمرة التي أجهزت على الخليفة عثمان من ذي قبل ، وهي اليوم تتمنى ان يطلق لها العنان في الولايات ، فيصبح كل من طلحة والزبير شريكاً الإمام في الخلافة فتفقد عليهم الأموال ، فيشترون عندها الناس ويجمعونهم إلى صفهم . فما قيمة المال في نظر الكبار إذا تساوا فيه مع الصغار؟ أطلحة والزبير يأخذان كما يأخذ غيرهم من المسلمين ؟ إن هذا الأمر لا يليق بهما ولا بشأنهما ، إنها أرفع مستوى ، إنها من عنصر له مميزاته الخاصة ، فلذا يستحقان التفضيل في نظرهما .

ولكن علياً يراما — كما مرّ في خطابه — إنها على مستوى واحد مع جميع المسلمين لا ميزة لهما ولا رجحان .

أبت عليها صحبتها أن يكونا كسائر الناس في العطاء ، إنها ومن تخلف

معهم يتوقعون عطاءً أزيد ونصيياً أوفر ، ولكنه الإمام ، الذي لا يشتري رضا الرجال بسخط الله ، إنه علي الذي يحكم بحكم الله ولا تأخذه في حكم الله لومة لائم ، إنه رجل المبدأ والعقيدة الذي يؤثرها على نفسه ويضحى من أجلها بدمه إنه علي لا يعترف بشرعية الطبقية ولا العنصرية ...

إن هذا العطاء المتساوي بين جميع المسلمين كان إيذاناً لمخالفة طلعة والزير فيما بعد ، إذ دبّ اليأس إلى قلوبهم . . وإن ابن أبي طالب ليس عاجزاً عن إدارة الحكم ولا واهناً في تسيير عجلته ، وإنما يستند الخليفة على غيره إذا عاجز عن حمل هذه التركة ، أما وإن علياً قادر على تحمل المسؤولية فلا حاجة لهما ولا لغيرهما ، فلذا ذرّ قرنه الشيطان ونفخ في رأسهما فأبديا العصيان ، فكانت معركة الجمل التي مثلت أول حرب بين أهل القبلة .

علي وعقيل

من المواقف الكبيرة التي تُعدّ في صلب العدالة العلوية، أن يجري الإسلام على القريب والبعيد في مستوى واحد، دون أن يكون للقرابة أي ميزة إلا بمقدار أعمالها، وما تعطيه للامة وتقدّمه لها من خير وإحسان، وقد سار علي من أقربائه سيرته مع غيرهم، فلم يفسح لهم المجال كي يتنعموا على حساب دينه وحساب المسلمين، دون أن يكونوا أكفاء لذلك، وقد شملت هذه العدالة أقرب المقربين وأحبهم إليه، لقد شملت شقيق روحه عقيل بن أبي طالب.

قدم عقيل الكوفة على أخيه الإمام في أحسن أيامه، أيام خلافته، إن علياً على رأس السلطة وبيده خزائن المسلمين يستطيع أن يدفع لمن شاء، ما شاء من الأموال والأرزاق، قدّم إليه وهو في أمس الحاجة إلى درهم يقيم به صلبه وينعش به أطفاله الذين أصابتهم المثرية، فدفعت بوالدهم للخروج من المدينة إلى الكوفة طلباً لمواجهة الإمام، فلعله يصدق عليهم من الأموال ما يعيشون به كباقي الناس في المستوى المعتدل، وقدّم عقيل الكوفة وفي نفسه أمل كبير أن ابن والده لن يخيب له أملاً، ولا يرجعه بأذيال الخيبة مهما كانت الظروف، نعم قدم عقيل الكوفة.

فقال له الإمام: مرحباً بك وأهلاً، ما أقدمك يا أخي؟

قال: تأخر العطاء عنا وغلا السعر لتصلني.

فقال علي عليه السلام : والله ما لي مما ترى شيئاً إلا عطائي ، فإذا خرج فهو لك .
فقال عقيل : أترى شخصوي من أجل عطائك ؟ وماذا يبلغ مني عطاؤك ؟
وما يدفع من حاجتي ؟

فقال علي عليه السلام : هل تعلم لي مالا غيره ؟ أم تريد أن يحرقني الله بنار جهنم
في صلتك بأموال المسلمين ، وألح عقيل وكرر الطلب ، فحينما رأى الإمام ذلك
منه عمد إلى حديدة فأحماها ، ثم قال لعقيل : أبسط يدك ، وكان قد كفّ بصره
فبسط يده فأدناها منه الإمام فلسعته فولول عقيل صارخاً .

وقد أشار إلى هذه الحادثة علي نفسه حيث قال في بعض خطبه : « والله لقد
رأيت عقيلاً املق - افتقر - حتى استأخني من بركم صاعاً ، ورأيت صبياناً شعث
الشعور غبر الألوان من فقرهم ، كأنما سوّدت وجوههم بالعظم ، وعادوني مؤكداً
وكرر علي القول مردداً . . . فاصغيت إليه سمعي ، فظن أني أبيع ديني واتبع
قيادته مفارقاً طريقي فأحيت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج
ضجيج ذي دنف من ألها ، وكاد أن يحترق من ميسمها فقلت له : ثكلتك الثواكل
يا عقيل اتئن من حديدة أحماها إنساناً للعبه ، وتجريني إلى نار سجرها جبارها
لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أتئن من لظى ؟

إذن لا مساومة على دينه وعلى حقوق المسلمين ، زرع الإسلام شجرة العدل
بيد النبي ، فأعطت ثمارها حياة متحركة في أسلوب علي ومواقفه التي جسدت
فيها روح الإسلام في العدالة والمساواة .

وأنا نرى من عدم الانصاف أن نقرن علياً بغيره من الخلفاء والملوك ، فكيف
نقرنه بمعاوية الطليق ، ولكن جرّت علينا الدواهي بمقارنته بغيره لنعرف فضله
وسموه وعدله ، فالتهار لا تعرف قيمته إلا بعد ليال يهيم ، والجهل لا تعرف
قساوته إلا إذا قيس بالعلم والمعرفة ، فمن هنا نضطر إلى ذكر سواء ومقارنته
به لنرى الفرق الكبير بين عدل الإسلام المتجسد في علي ، وبين جور الجاهلية
وظلمها المتمثل في معاوية وانحراف عثمان .

عقيل ومعاوية :

تذكر بعض الكتب أن عقيل بن أبي طالب بعد أن يش من عطاء أخيه ، وأنه لن ينال منه إلا ما يناله أي فرد من المسلمين امتطى عندها دابته وضرب وجهها نحو معاوية قاصداً بلاد الشام ، إنه يرى في افق معاوية وفي يديه عطاء كبيراً ، عطاء من ينفق ويكرم من غير ماله ، فليستوجه إليه ، فإن هذا المال ينفق في غير وجهه ، ويحرم منه أصحابه من الفقراء والمعوزين ، وأن عقيلاً أحق من يأخذه ، فقد ضاقت به البلاد وانسدت في وجهه السبل .

توجه عقيل إلى معاوية ، فلما قدم عليه قال له : مرحباً وأهلاً بك يا ابن أبي طالب ما أقدمك عليّ ؟

فقال : قدمت عليك لدين عظيم ركبني ، فخرجت إلى أخي ليصاني فزعم أنه ليس له مما يلي إلا عطاءه ، فلم يقع مني ذلك موقعاً ، ولم يسدّ مني مسداً فأخبرته إني سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لي فبحثت . فازداد معاوية فيه رغبة وقال : يا أهل الشام هذا سيد قریش وابن سيدها ... وزعم له -أخوه- أنه ليس له مما يلي إلا عطاءه ، ولكنني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي فيما أعطيت فقرية إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح عليّ فيه !! فأغضب كلامه عقيلاً حين سمعه ينتقص أخاه فقال : صدقت خرجت من عند أخي على هذا القول ، وقد عرفت من في عسكره ، لم أفقد والله رجلاً من المهاجرين والأنصار ولا والله ما رأيت في عسكر معاوية رجلاً من أصحاب محمد ﷺ .

ومع هذا فقد وصله معاوية ثلاثمائة ألف وقال له : هذه ^(١) مائة ألف تقضي بها دينك ، ومائة ألف تصل بها رحمك ، ومائة ألف توسع بها على نفسك .

هكذا يتخذ معاوية طريق الجور ، ويتأدى في الغي ، إنه فرع من تلك الشجرة الملعونة

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٨٤ .

التي ذكرت في القرآن ، فكأنما الإسلام ملك أبيه أبي سفيان ، وكأنما خزينة المسلمين وبيت مالهم ميراث منه ، فلذا كان يتصرف فيه تصرف الملاك دون مراعاة للحق أو صرف له في وجهه المرسوم له .

إن من يعطي مصر طعمة لابن العاص لقاء مساندته له في قتاله إمام الأحرار أمير المؤمنين علي يهون عليه أن يعطي عقيلًا هذا المبلغ .

إن معاوية كان يشتري ضمائر الرجال بالمال ، لم يراقب الله في شيء من أعماله إلا بمقدار ما يخدم مصلحته ويثبت ملكه ، فلذا تراه يبذل لسمرة بن جندب (١) مائة ألف درهم حتى يحدث بأن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وهي قوله تعالى : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، فلم يرض فبذل له مائتي ألف ، فلم يقبل فبذل له اربعمائة ألف فقبل .

هذه واقعة واحدة من كثير أمثالها ، مما استخدم فيه مال الله في حرب أولياء الله ، لقد سعى بكل جهده لإطفاء نور الله ، واستخدم جميع الوسائل غير المشروعة للوصول إلى غايته ألا وهي إمارة الحق وإشاعة الباطل .

اربعمائة ألف درهم تجعل لكذاب من ألد أعداء الله ورسوله ، وتحرم منها الأكباد الغرثى والأفواه الجائعة ، انه الظلم الأموي في أبشع صورته .. ويحدثنا التاريخ مع ذلك ، ان معاوية سأل عقيلًا عن قصة الحديدية المحمّة ، وأن يقصّ عليه قصتها ، فقال عقيل :

أقويت واصابتني نخمصة شديدة فسألته - الإمام - فلم تند صفاته ، فجمعت صبياني وجئت بهم والبؤس والضر ظاهران عليهم فقال : أئتني عشيّة لأدفع

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٥٨ .

إليك شيئاً فجئت به بقودني أحد ولدي ، فأمره بالتنحي ثم قال : ألا فدونك فاهويت - حريصاً قد غلبني الجشع ، أظنها صرّة - فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً ، فلم قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يد جازره .

فقال لي : ثكلتك أمك ! هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وببي غداً ان سلكتنا في سلاسل جهنم ، ثم قرأ : (إذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون) .

ثم قال : ليس لك عندي فوق حقلك ^(١) الذي فرض الله لك إلا ما ترى فانصرف إلى اهلك فجعل معاوية يتعجب ويقول : هيهات هيهات عقلت النساء أن يلدن مثله .

ولعقيل مع الإمام مواقف متعددة يذكر ابن أبي الحديد في شرحه على النهج .
قدم عقيل بن أبي طالب على الإمام بالكوفة يسترفده ، فمرض عليه عطاؤه فقال : إنما أريد من بيت المال ، فقال : تقيم إلى يوم الجمعة ، فلما صلى عليه ^{عليه السلام} الجمعة قال له : ما تقول فيمن خان هؤلاء جميعاً قال : بنس الرجل ، قال امرتني ان اخونهم وأعطيك ، فلما خرج من عنده شخص إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم وقال له : يا أبا يزيد -- كنية عقيل -- أنا خير لك أم علي قال : وجدت علياً أنظر لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك .
وسواء صحت الرواية أم لم تصح ، فإن علياً لا يساوم ولا يحابي مهما كانت الظروف واختلفت الأشخاص ، إنه سلوك واحد أراد الله منه ، فهو لا يسلك غيره .

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ١١ ص ٢٥٣ .

الخلافة في نظر علي

عادت الخلافة إلى أهلها بعد مدة كبيرة مضت على اغتصابها ، وما هي اليوم تستقبل بوجهها صاحبها الشرعي الذي عهد له بها محمد رسول الله ، إنها تفتح إليه ذراعها وقلبها ، وترمق السماء لتطوي تلك الأيام الحزينة التي مرت عليها ، وتجرح غصصها وآلامها ، ان صاحبها اليوم هو صاحبها بالأمس ، إنه يريد لها لإقامة الحق والعدل بين الناس ، إنه يريد لها من أجل رفع الظلم والطغيان الذي حاق بالمسلمين على أيدي الأمويين وعماهم الأشرار .

إن علياً كان يراقب الإسلام وشريعة الله فيذوب قلبه حسرة وألماً ، أن يرى الشذوذ ، فلا يستطيع تغييره ويبصر المنكر فيعجز عن منه .

ليست الخلافة في نظر علي - وإن كانت حقاً له - إلا جسراً يعبر عليه لإقامة صرح العدل وأسس الحق الذي أراده الإسلام وطلبه ، وإلا فالخلافة أحوج إليه من حاجته إليها ، أنه خلاف سائر الناس هم تزينهم الخلافة وهو يزينها . وقد آثر الركون والدعة بعد سقيفة بني ساعدة حفظاً للإسلام وحيطه له خوف أن تمزقه الأيدي الآثمة والعصبيات البغيضة التي لا تزال تعتلج في نفوس القوم وتحمل على الإسلام وعلى الإمام الذي فتك سيفه في آباطها وأجدادها يوم بدر واحد والأحزاب وغيرها .

إن العرب لا تزال بالمرصاد لهذا الدين الذي وترها في احسابها ، فجعل الناس أمة واحدة في مستوى واحد يتساوون أمام الله وأمام الشريعة ، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحرر إلا بالتقوى ، إنه الدين الذي استسلمت له بعد ان عرفت أنه لن يهادنها في عقيدتها الفاسدة واسفافها الفكري الدنيء وعاداتها الجاهلية القبيحة ، لقد استسلمت وما أسلمت واستأمنت وما آمنت فهي تتحين الفرص للانقضاض على هذا الدين ومحقه ، والرجوع إلى جاهليتها الاولى .

فلذا ما إن تمت صفقة الخلافة لأبي بكر بغياب بني هاشم وعميدهم الإمام علي صاحب الخلافة الشرعي الذين كانوا في مصيبة وفاة رسول الله يقومون بتجهيزه تغسيلاً وتكفيناً، ما إن تمت الخلافة لأبي بكر حتى قام علي مطالباً بها محتجاً بنفس ما احتجت به قريش للاستيلاء على الخلافة وأخذها من الأنصار بأنها شجرة الرسول ، فأجابهم الإمام : « احتجوا بالشجرة واضاعوا الشجرة » وأدلى الإمام بحججه كلها لدى المسلمين عامة المهاجرين منهم والأنصار وسائر الناس ، ولكنها كلها ردت ، فإن خلافة أبي بكر قد تمت وسبقت حقه الذي أوجبه الله عليهم ، وعندما خاف أن ترجع راجعة الناس عن الإسلام ، وخاف الردة الجماعية والانحراف الذي يؤدي إلى محو دين الله والاثيان على كل رسالات السماء المتمثلة في خاتمة الأديان ، ألا وهو الاسلام عندما خاف ذلك ركن منتظراً للفرج ناظراً إلى الاسلام يدرأ عنه ما أمكنه من الخطر .

فلذا قال عليه السلام : اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس ^(١) شيء من فضول الخطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك .
فقد وضع الامام أسس الامامة وبين من هو الفرد الصالح لتولي هذا المنصب ، إنهم الأئمة الهداة من أهل بيت النبوة الذين أذهب الله الرجس عنهم وطهرهم

(١) نهج البلاغة ص ٩٨ .

تطهيراً، إنهم سدنة الاسلام وأركان الشريعة مَنْ هبط الوحي في بيوتهم، وكانوا عترة المصطفى وأهل بيته الطاهرين .

لقد بين الإمام ان الخلافة ^(١) إنما هي لاقامة الحق والعدل ونشر الدين والايان ، وإلا فلو خلت من ذلك ، فلا قيمة لها عند علي وإبنائه ، ولذا نراه قد رفضها عندما اقترنت بشرط يخالف الحق ، إنه رفضها حفظاً للحق وقبلها فيما بعد حفظاً للحق ، وهكذا كانت سيرة علي وسنته يؤثر الحق ويتبعه أين كان ومهما كانت نتائجه .

(١) نهج البلاغة خطبة ١٣١ .

علي عليه السلام وعماله

حينما نقف أمام علي نقف أمام طود من أطواد العدالة الذين مثلوا أعظم القيسم على مدار التاريخ ، إنه مصباح العدل إن جارّ الناس ، وإمام الحق إن عدلّ الناس عن الحق ، إنه أمير المؤمنين علي قد مثل عدل الإسلام كما هو بواقعه وأعاد للمجتمع الإسلامي تلك الذكريات الماضية في عهد النبوة التي شملت المسلمين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

إن من تصفّح كتبه إلى عماله الذين انتقاهم لحكم البلاد ، يجد الروح الإسلامية ونفحات الإمامة وعطر العدل يفوح منها وينتشر .

إن علياً يُعدُّ مسؤولاً عن البلاد والعباد ، حتى إن رعايته تشمل البهائم ، فيجب عليه أن يؤمّن للمجتمع العدالة الإسلامية التي ينشدها الإسلام للناس ، فلا يجوز الوالي في حكمه ولا يتخذ المنصب والمقام ذريعة للنيل من الضعفاء وأصحاب المسكنة الذين يثلون الغالبية العظمى من الناس ، إن الوالي عندما تطلق يده ولا يكون عليه رقيب قد تجمع نفسه لظلم العباد وتطمعه في التجاوز على حقوقهم دون حق له أو امتياز ، ولذا كان الإمام يتقصّى أخبار ولاته ويستمع لشكاوى الناس ومتطلبات الرعية ، ولم كانت تجرح نفسه شكوى تقدّم إليه من أحد الناس في حق والٍ من ولاته ، ويا لها ساعة سوء تمرّ على ذلك الوالي المشكو . . .

إن علياً لا يتسامح في شكوى أحد ضد الولاية ، لا بدّ له من استقصاء الخبر ولا بدّ له من الوقوف على الحقيقة الكاملة ، وإذا نظرنا إلى بعض كتبه التي خطّها علي بيده ، نجد الحملة الشديدة التي لا تدع للوالي ظهراً يقيمه ولا رأساً يرفعه بين الناس ، وهذه نماذج من كتبه نعرضها تصديقاً لما نقول :

كتابه الى مصقلة بن هبيرة الشيباني :

فهذا مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل علي على اردشير خرة يبلغه عنه انه قد اجتمع عنده أموال من فيء المسلمين ، فاغتم هذا الوالي مركزه كوالٍ فقسم هذا المال بين عشيرته وأهله ليكون له عليهم يد وفضل .. ويسمع الإمام بذلك النبأ من أفواه الناس فيكتب إليه كتاباً يثقل ظهره ويدعه عبء لسواه .

كتب علي عليه السلام :

بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إهلك وعصيت إمامك ، انك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأريقته عليه دماؤهم فيمن اعتملك من أعراب قومك .. فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك علي هواناً ولتخفن عندي ميزاناً ، فلا تستهين بحق ربك ولا تصلح دنياك بحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء يردون عندي عليه ويصدرون عنه .

هذا كتاب علي يمثل بعض اللحظات من عدله عليه السلام ...

إنه علي يقسم بالله ، وعلي يبرّ بدون قسم فكيف وقد أقسم ؟! أقرأه مرة أخرى وحلّل مغزاه وقِفْ عند كل كلمة وقفة التأمل المتبصر ، إنذار وتهديد لا يدع للمرء مجالاً ... وانظر إلى قوله - فيمن اعتملك من أعراب قومك - إنك تستشف منها الاحتقار له ، حيث عمد الى قومه بمن ليسوا بأهل للعطاء

فأعقد عليهم من أموال المسلمين وفيهم ، ثم تمنّ في قوله : (لتجدنّ لك عليّ هواناً ولتخفنّ عندي ميزاناً) ، إنه الجزاء العادل لخيانته ولي امر المسلمين وخليفتهم ، إنه ميزان عادل ، خان الرجل او انحرف ، انخفض في الميزان ولم يعد له وزن او قيمة ، يهون امره وتقلّ هيئته .

كتابه الى زياد بن أبيه :

وإني أقسم بالله صادقاً لئن بلغني انك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً او كبيراً لأشدنّ عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر ... انظر أيضاً إلى هذا الكتاب الذي ينمّ عن محاسبة عماله محاسبة ليس فيها رفق او لين ، فإن المال للمسلمين فكيف يتصرف به والي من ولاية علي بنغير الحق ؟ وكيف يتجرأ هذا الوالي في الاقدام على خلاف المرسوم له من قانون الدين والشرع والعدل والأخلاق ؟ إن علياً لا يطيق أن يسمع الجور بأذنيه فكيف ينظر إلى بعض عماله يمارسه ويقترقه ثم يسكت عنه ؟ إن هذا أبعد ما يكون عن نفسية علي وسلوكه العام والخاص .

وهذا كتاب ثالث الى بعض عماله أيضاً ، يقول فيه :

أما بعد ، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلتَه فقد أسخطت ربك وعصيت إمامك وأخزيت أمانتك ، بلغني أنك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك ، فارفع إليّ حسابك واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس ... والسلام .

إنها روح علي التي ترفض الظلم والخيانة بجميع أشكالها ، إنه التعبير الذي يصوّر الفاجعة بشكلها المرعب المخيف ، جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك .

إنها صورة للانسان الشرّ النهم الذي لا يراعي حقوق الناس ولا يهتم بهم ، بل صورة الانسان الذي انتزعت إنسانيته ففقد ذنباً مقترساً لا يمرّ في طريقه

شيء فيعف عنه ، هكذا يصور الإمام هذا الوالي ويأمره برفع حسابه إليه ،
ليقف بنفسه على ما كان منه .

وهذا كتابه عليه السلام الى المتذر بن الجارود العبدي ، وقد خان في بعض ما
ولاه من أعماله :

أما بعد ، فإن صلاح أهلك غرّني منك وظننتُ انك تتبع هديك وتسلك
سبيلك ، فإذا أنت فيما رقي إليّ عنك لا تدع لحوالك انقياداً ولا تبقي لآخرتك
عتاداً ، تعمّرُ دنياك بخراب آخرتك ، وتصلّ عشيرتك بقطيعة دينك ، ولئن
كان ما بلغني عنك حقاً لجلّ أهلك وشسع نعلك خير منك ، ومن كان بصفتك
فليس بأهل أن يُسدّ به ثغر أو ينفذ به أمر أو يُعلى له قدر أو يُشرك في أمانة
أو يؤمن على جباية ، فأقبِلْ إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله .

هذه نماذج من كتب الإمام عليه السلام إلى عماله تبين بكل وضوح وجلاء خط
علي المستقيم ، علي الذي لا يساوم على دينه ولا يهادن أحداً مهما كانت شخصيته
ومنزله ، فإن الأعمال هي التي ترفع الرجال وعلى أساسها يكون الحساب ، ولو
كان غير علي وفي تلك الظروف التي يمرّ بها لأطبق جفنيه وسكت طلباً لرضا
الوالي وشراءً لضميره ، حق لا ينحرف عنه ويتخذ الى معاوية طريقاً يوصله إليه .

أقول : لو كان غير علي في تلك الظروف لمّا حرّك ساكناً ، بل بارك له في
عمله وسدّد له تصرفه ، كي يبقى الى جانبه يُعينه في حربه مع الدّ أعداء الدين
معاوية ، ولكنه (علي) الذي لم يعرف قلبه إلا الحق والعدل والإنصاف ، ولو
كان لأقرب المقربين إليه وأعزّهم لديه .

هذا هو موقف علي .. وهيتا بنا لننظر الى خليفة قد تقدّم عليه ، لنرى
هل استطاع أن يسيطر على هواه ويتخذ الحق والعدل إماماً ، أم كان مثل ذلك
الوالي الجشع الذي خاطبه الإمام بقوله : (لجلّ أهلك وشسع نعلك خير منك) .

نقل البلاذري : لما قدّم الوليد الكوفة — والياً من قبل عثمان — ألفى

ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالا - وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذه - فأقرضه عبدالله ما سأله ، ثم انه اقتضاه إياه فكتب الوليد في ذلك الى عثمان ، فكتب عثمان الى عبدالله بن مسعود : « إنما انت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال » . فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك ، ثم قال : مَنْ غَيَّرَ غَيَّرَ اللَّهُ مَا بِهِ ، وَمَنْ بَدَّلَ أَسْخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وما أرى صاحبكم إلا وقد غَيَّرَ وَبَدَّلَ ...

فهذا الفصل بهذه الصورة يقسّم لنا الخيانة بشكل غريب ورهيب ، حيث يوافق خليفة المسلمين في عملية السلب والغصب ، فبدلاً من إيقاف الوليد وحسابه إذا به يعكس الأمر فيحاسب خازن المال ويكتب إليه ان لا يتعرض للوليد ، ولو جئنا لنسأل الخليفة عن هذا التصرف فجواب ذلك جاهز ولسانه زلق فصيح فهو ببداية فذة يجيب : (أنا أحسب ^(١) في إعطاء قرابتي) . وكأن هذا هو الجواب المنطقي الذي يقنع سائر الناس وينسجم مع روح العدل والإيمان ، ولكن الأمر ليس كذلك يا خليفة المسلمين ، أفلم يكن للنبي قرابة ؟ أفلم يكن للذين تقدّموا عليك - أبي بكر وعمر - قرابة ؟ فلماذا لم يحتسب النبي ؟ ولم لم يحتسبها ؟ ولماذا لم يعطيا لقرابتهما ؟ .

وهل يمكن لمسلم أن يتفوّه بأن أموال المسلمين وجنى سيوفهم ترد إلى غير أفواههم ، ترد الى الامويين خاصة ؟ فكأن الله أنزل فيهم قرآناً خصّهم دون غيرهم ، أو كان السنة جاءت بتشريع خاص بهم يبيح لهم أموال المسلمين وأرزاقهم ، لعل سرّ ذلك عند الخليفة عثمان محفوظ ...

إن من يقف أمام كتب الإمام عليّ عليه السلام الى عماله يحيد الحنو والرفق في الرعيّة والعمال إن كانوا مخلصين ، ويحيد الشدة والقسوة على عماله الذين يخالفون الحق

(١) عن الفدير ، ج ٨ ص ٢٦٩ .

ويرهقون الناس بأعمالهم وأفعالهم .. نجد الشدة والقسوة على العمال المنحرفين ،
ونجد الإكبار والإشادة لمن أطاع الله وحفظ حقوق المسلمين وراعى واجباته
اتجاه رعيته .

فهذا كتاب الإمام الى عبدالله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر ، يذكر
فيه مآثر محمد ويعمد بحاسنه الرفيعة التي أوجبت له محبة الإمام وتقديره :

أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر (رحمه الله) قد استشهد
فعند الله فحسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً .

وهناك نظير هذا الكتاب ما تقدم في الثناء والمدح على رجل استحق الإطراء
والمدح ، ألا وهو مالك بن الحارث الأشتر ، يقول في أحد كتبه الى أهل مصر:

أما بعد ، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل
عن الأعداء ساعات الروح أشد على الفجّار من حريق النار - وهو مالك بن
الحارث أخو مذحج - فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق ، فإنه سيف
من سيوف الله لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة ، فإن أمركم أن تنفروا فانفروا
وإن أمركم أن تقيموا فاقموا ، فإنه لا يُقدّم ولا يؤخر ولا يقدر إلا
عن أمري ، وقد آثرتكم به على^(١) نفسي لنصيحتي لكم وشدة شكيمة على
عدوكم ...

فانظر الى هذا الإطراء الرفيع الذي وصّف به الأشتر ومحمد بن أبي بكر
آية في قمة الثقة بهما والإشادة بمحامدهما ، فإن قوله (وقد آثرتكم به على نفسي)
يعطي لهذا الرجل قيمة فوق قيسم الناس جميعاً ، إذ لا بد وأن يكون هذا
الإنسان قد تمتع بصفات ومواهب فذة لفتت أنظار الإمام إليه ، حق أعطاه
هذه الشهادة العظيمة التي تمتد إليها الأعناق ويتمناها الرجال .

(١) نهج البلاغة ، باب الكتب ص ٤١١ .

وقفات على أعتاب العدل العلوي

هذه بعض المفردات التي أذكرها كشواهد على عدل الإمام ، إنها جزئيات ذلك العدل الكلي الذي عاش في نفس الإمام وفي حياته ، هي شواهد تعيد لنا تلك الأيام الماضية والحوادث الخالية التي نستشف عبرها ونأخذ عبرها دروساً عالية في هذا المضمار .

١ - ان سودة بنت عمارة الهمدانية دخلت على معاوية بعد موت علي ، فجعل يؤنبها على تحريضها عليه أيام صفين ، وآل أمره إلى أن قال : ما حاجتك ؟ قالت : ان الله سائلك عن أمرنا ، وما افترض عليك من حقنا ، ولا يزال يتقدم علينا من قبلك ، من يسمو بكانك ويبطش بقوة سلطانك ، فيحصدنا حصداً السنبلة ، ويدوسنا دوس الحرمل ، يسومنا الخسف ويذيقنا الحتف هذا بسر بن اوطاة قدم علينا فقتل رجالنا وأخذ أموالنا ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فإن عزلته عنا شكرناك وإلا كفرناك .

فقال معاوية : إياي تهدين بقومك يا سودة ؟ لقد هممت أن أحملك على قتب فأردك إليه فينفذ فيك حكمه .

فأطرقت سودة ساعة ثم قالت :

صلى الإله على روح تضمنها قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً

قد حالف الحق لا ينبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقروناً
فقال معاوية : من هذا يا سودة .

قالت : هو والله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والله لقد جثته في رجل
كان قد ولاه صدقاتنا ، فجار علينا فصادفته قائماً يصلي ، فلما رأني انفتل من
صلاته ، ثم أقبل عليّ برحمة ورفق ورأفة وتعطف وقال : ألك حاجة ؟
قلت : نعم فأخبرته الخبر ، فبكى ثم قال : اللهم أنت الشاهد عليّ وعليهم ،
وإني لم آمرهم بظلم خلقك ، ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءكم بينة من ربكم ، فافوقوا الكيل والميزان
ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، فإذا قرأت كتابي هذا ، فاحتفظ بما في يدك من
عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام .

هذه الحادثة كنت لا أريد أن أعلق عليها بشيء ، كنت أريد أن أتركها
للإنسان الواعي كي يفكر وينظر إلى هذين الموقفين ، موقف إمام الحق والهدى
الإمام علي وموقف إمام الضلالة والردى معاوية الباغي ، ولكن ألحّت عليّ
نفسي وأبت ، إلا أن تدخل في الحديث بما يتصل بهذه الواقعة .

إن هذين البيتين من الشعر قد كتبا على صحيفة ذهبية ، ووضعت فوق
الضريح المقدسة للإمام علي في النجف الأشرف ، يراها من زار تلك البقعة المقدسة
وتشرف بلثم تراها ، أنها يعبران عن لسان الواقع الذي عاشه علي في عدله ، فلما
فقد صلوات الله عليه فقد العدل وساد الجور .

ثم إن ورود اسم بسر بن أرطاة ، لا يمكن أن يمر دون أن يحمل جرائم
الفساد ، ويذكرنا بمواقفه الخزية التي ذاقت الأمة المسماة على يديه ويدي استاذة
معاوية أسوأ وأقسى ما قاسته أمة على وجه الأرض .

الله أكبر ! كم لاقت هذه الأمة من بني أمية وعمالهم الطغام ، وكم ذاقت على

يدي هذا المسخ اللئيم ، لقد سن له معاوية الاسلوب الذي يتبعه ويسير عليه عندما أرسله إلى الحجاز واليمن - وهما تابعان لسلطان الإمام وحكمه ، قال له موصياً :

سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس ، واخف من مررت به ، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ، ممن لم يدخل في طاعتنا .. ثم سر حتى تدخل مكة ، ولا تعرض فيها لأحد ، وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شرداً .

وقد سار بسر المحرم يحصد الأخضر واليابس ، ويأتي على الحرث والنسل ، لم يعف عن الشيوخ العجيز ، ولا عن الأطفال الرضع ، لقد عرض خلقاً كثيراً على أحد السيف ، حتى أنه عندما عاد من رحلته تلك ، عاد يحمل إلى معلمه معاوية قاعة بثلاثين ألف نسمة ، قد حصد قسماً منهم بالسيف ، وأحرق بالنار قسماً آخر لم يعف بسر حتى عن الأطفال ، فقد شملهم ظلمه وإجرامه ، إذ ذبح بمديته طفلين لعبيد الله بن العباس ، لم تأخذه رأفة عليهما ، ولا عطف قلبه على نعومتها ، مما جعل امرأة من بني كنانة تقول : هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ، والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام ، والله ان سلطاناً لا يشتد إلا بقتل الضرع الضعيف والشيخ الكبير ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء ...

إن معلمه قد وجهه وجهته وهو المطيع له ، وإن كان في إطاعته معصية الخالق والكفر بالله العظيم ، إنهم اناس لا يعبدون الله ولا يتوجهون إليه ، إنما يعبدون معاوية ويزيد وخلفاء بني أمية الطغاة ، هؤلاء هم آلهتهم وإليهم يتوجهون في العبادة وإنك لو ضربت بطرفك نحو جرائم الأمويين وجرائم ولائهم ، لجئت بكتاب يضم عدة مجلدات .

وهنا قد يقول البعض ان هذا تطرف في الحكم على الأشخاص ، وهل يعبد المسلم غير الله ، وأنا لا أجيب على ذلك ، ولكن أعود معكم إلى ما نقله صاحب كتاب الامامة والسياسة وغيره من المؤرخين ، عندما تعرض لقصة سعيد بن جبير ووقوعه في أيدي خالد بن عبد الله القسري ، فقد تقدم له بعض الناس قائلين : لو

جعلته فيها بينك وبين الله ، لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله ، فقال خالد : وقد كان ظهره إلى الكعبة ، قد استند إليها : والله لو علمت ^(١) ان عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته في مرضاته .

وإذا أردت أن تنظر إلى اللائحة السوداء الملوخة بالدماء ، فما عليك إلا أن ترجع إلى تاريخ الأمويين لترى تلك السلسلة المشوهة التي لاحقت المسلمين تحت كل حجر ومدر ، فأبصر ولاية الأمويين أمثال مسلم بن عقبة الذي غزا المدينة في وقعة الحرة ، وقتل ثمانين رجلاً من أصحاب رسول الله ، ولم يبق بدرية بعدها ، ومن قريش والأنصار قد قتل سبعائة ، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف ، واستباحها لجنده ثلاثة أيام يعيثون الفساد ويعنون هتكاً في الأعراض حتى أن الرجل إذا أراد أن يزوج ابنته لم يضمن بكارتها خوفاً من تلك الواقعة .

وأبصر زياد بن أبيه وما فعله في شيعة علي حيث لاحقهم ، فقطع الأيدي وسمل الأعين وشردهم في البراري والقفار .

وهلّم إلى الحجاج وما فعله ، فاقرأ تلك الأيام المظلمة التي شيدت عروش الأمويين على جماجم المسلمين ، وأين هذا من عدل الامام ، ومن وصاياه إلى عماله فقد تقدم جملة من كتبه التي أبانت معالم الحق والعدل عنده ، وكيف كان يقف من أولئك العمال موقف المحاسب الرقيب الذي يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة .

وإذا أردنا أن نعرف قيمة العدالة عند الامام بصورة أوسع ، وندرك عمق النظرة العلوية إلى هذا المفهوم الاسلامي ، فما علينا إلا أن نقرأ بعض كتبه التي تعد من مصادر الأحكام والتي كتبها ، فأسس فيها عماد الحق ، وأبان بها وجه العدالة المطلقة التي يحن إليها الناس ، وتشوق البشرية نحوها ، متطلعة إلى اليوم

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٢ .

الذي تتحقق فيه متمنية أن تعيش تحت ظلالها . فاسمعه حيث يكتب إلى من كان يستعمله على الصدقات :

« انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله ، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبيائهم ، ثم أمض إليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج بالتحية لهم .

ثم تقول : يا عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ، فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بآذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسؤن صاحبها فيها واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيّمه ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه .

ويكتب كتاباً آخر إلى جباة الزكاة يقول لهم فيه : فانصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم ، فإنكم خزان الرعية وكلاء الامة وسفراء الأئمة . وقال لابن عباس وقد استعمله على البصرة بعد فراغه من أصحاب الجمل : أوصيك بتقوى الله عز وجل والعدل على من ولاك الله أمره اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك وإياك والإحسان ، فإنها تمت القلب والحق ، واعلم ان ما قربك^(١) من الله بعدك من النار ، وما قربك من النار بعدك من الله ، أذكر الله كثيراً ، ولا تكن من الغافلين .

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٧٩ .

هذه هي فقرات الحق والعدل يأمر بها الامام وكلاءه كي ينهجوا على الطريق
النبيّ والدرب المستقيم ، فلا يكونوا على الناس كالسباع الضارية تأكل ما تجد
وتطلب ما لا تجد ، ان العمال وجباة الأموال والامراء هم خدام هذا المجتمع
يحافظون على الحق ويدافعون عنه ، يهتمون بالفقراء ويعملون على إعانتهم
وإسعافهم ومدّهم بما يقدرون عليه ، إنهم ليسوا جبابرة أو طغاة ولا فراعنة أو
آلهة ، إنهم نصّبوا في هذه المراكز من أجل تسيير الامور بالحق ، ومن أجل
رعاية هذه الامة ، فيجب عليهم أن يوفرّوا الأمن لكل أفراد المجتمع ، الأمن
على الأنفس والأموال والأعراض ، وأن يسدوا خلة المحتاج ويرفعوا عوز الفقير
والمسكين .

إني امرأة من العرب

بهذه الحجة الواهية أرادت أن تستميل علياً عن دينه وتخرجه عن طريقته . إنها امرأة من العرب ، وكان للعرب — في نظرهما — ميزة على غيرهم .. إنها تعيش الروح القبليّة العنصرية التي أتى عليها الإسلام فحاحها من أساسها وقضى على كل من يرفع شعار التمايز بالألوان والدماء والأنساب .

إنه الإسلام الذي خاطب البشرية على امتدادها ونادى بها بهذا النداء العام : « يا أيها الناس^(١) إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ... فعلى أساسها يتقدم فرد ويتأخر آخر ، وعلى أساسها يكون الإكرام والتقدير والثقة والاطمئنان .

وهذا الدستور القرآني قد عاش في وجدان علي وضميره وانعكس على سائر تصرفاته وأعماله ، حتى في أخرج الظروف وأقساها كان الإمام لا يخالف طريقته التي رسمها له الاسلام وبيّنها له رسوله الأمين .

إن الإسلام قد قضى على الفوارق الاجتماعية التي خلقتها الاعترافات الطبقيّة او العنصرية ، فليس للغني ميزة على الفقير ولا للعربي فضل على الأعجمي ولا للأبيض درجة على الأسود ، الناس كلهم عبيد الله وهم أمامه متساوون ، هو خلقهم وإليه مرجعهم ومآبهم .

وهذه إحدى الوقائع التي تجري أمام علي وتقرع سمعه بدعوى باطلة وحجة

(١) سورة الحجرات / ١٣ .

واهية ، إنها واقعة لا تستحق الاهتمام والالتفات ، ولكنها على كل حال احدى الدعاوى التي سوف يواجهها الإمام بالإنكار .

إنهما امرأتان تتقدمان من الإمام تدفعهما الحاجة ويقودهما العوز فيدفع لكل منهما دراهم وطعاماً بالتساوي كما أراد الله ، إنه ميزان العدل الذي لا تفاوت فيه ، ميزان واحد يجري على الذكر والانثى ، على العربي والعجمي .. إن المال مال الله والناس عبيد الله ، يقسم بينهم بالسوية دون تفاوت او زيادة لأحد على حساب الآخرين .

ولكن احدى المرأتين تأبى ان تتساوى مع اختها المسلمة ، بل تطلب الزيادة عليها قائلة للإمام : « اني امرأة من العرب وهذه من العجم » .

إنها امرأة تعيش بعض الكبر والعلو وترى لنفسها ميزة تفقدها المرأة الاخرى ، فلذا أرادت بهذه الصفة ان تأخذ أزيد من حقها ، انها تصورت بهذه الدعوة انها تكتسب رضا الإمام وتستميله الى جانبها وتحصل على ما تريد ، ولكن الإمام الذي يمثل العدل بأفقه الكبير لا تحركه هذه الدعوة إلا ضد آمن تدعيها ، لأنها دعوة جائرة مبتنية على أسس فاسدة ينكرها الإمام ويحاربها ، فلذا أجابها الإمام قائلاً : « اني والله لا أجد لبني اسماعيل في هذا الفيه فضلاً علي بني اسحاق » .

إنه درس من دروس علي ما أحوجننا إليه في هذه الظروف التي يعتدي فيها الإنسان على أخيه الإنسان ويتجاوز حقوقه ليطغى على حقوق الآخرين .

إن السرقات التي يارسها المسؤولون والكبار في الحكم قد أصبحت جزءاً من وجودهم وأساساً من أسسهم ، فكيف يقيمون العدل بين الناس ومنهم أتي الجور وعلى أيديهم جرى الظلم والانحراف ؟ ما أشوقنا الى إنسان يمثل علماً ويسير بسلكه فيطبق ميزان العدالة ويجري بأمر الله ونهيه ، فيعيش الناس بعدلهم ويأمنون بوجوده .

للعدل لا للمصلحة الشخصية

إن المشاهد المختلفة للحكام الجائرين تترء بأشكال مرعبة مخيفة ، فترى الحاكم - حفاظاً على شخصيته وحكمه - يكرس الاقطاع والعشائرية الظالمة ويرفد رؤسائهم بالأموال والأعطيات ويفدق عليهم بدون حساب ، من أجل ان يسبّحوا باسمه ويعلنوا تأييدهم له .. إنه يبصر بألم عينيه كيف يعاني الشعب من ظلم الولاة وجورهم ، ويرى بشكل سافر الممارسات المحمى الجائرة التي يقوم بها ولاته ومعاونوه .. إنه يرى الرشوة تملأ جيوب الوزراء والنواب والمسؤولين ، ومع ذلك يباركها ويسدّد خطى أصحابها خوفاً منهم إن هو حاسبهم أن يقفوا في وجهه فيمخذلوه او يعلنوا المعارضة عليه فيجاربوه .

إن الحاكم عند وصوله الى سدّة الحكم يكون قد تعاقد مع نفسه ان يستمر في حكمه ، فيعمل بكل السبل من أجل بقائه في مركزه ، مركز القيادة والرئاسة .

ومن هنا لا يحاول ان يمسّ شؤون المسؤولين في دولته ، إنه يسترضي اولئك الكبار في بلاده ممن يتمتعون بشعبية او يقودون أحزاباً وتكتلات ، مهما كان ضلال هؤلاء القادة ورؤساء هذه الأحزاب .

إنه يرى كيف يتمّ القضاء على العدل ويُعمل بالجور من قبل هؤلاء المسؤولين.

إنه على مرأى ومسمع من أنين المظلومين وسغب الجائعين الذين ظلموا من قبل المسؤولين الذين أيدهم هذا الحاكم ووافقهم على ظلمهم .

إنه - لمصلحة نفسه وبقيائه في سدة الحكم وعلى رأس الدولة - يضحّي بكل المثل والقيّم والمبادئ الانسانية الشريفة ، فليس من أجل الحق والعدل يعمل ، بل من أجل نفسه ، فإذا تعارضت مصالحته مع العدل الاجتماعي فليذهب العدل والعادلون الى حيث لا رجعة ولا عودة ، إنه إنسان أناني أطاح بكل بنود العدالة من أجل نفسه .

هكذا في حياتنا تبدو الصور ويمرّ شريط الحكام والمسؤولين ، عند استعراضه .. وهكذا كانوا ولا يزالون ، إلا ثلة قليلة تتجسّد في الأنبياء والأئمة ، هؤلاء فقط استطاعوا أن يدقوا أبواب الحرب على الظلم والظالمين ، أين وُجد الظلم وأين حلّ الظالمون .

إنهم الأنبياء والأئمة قادة العدل ولسان الحق ، وقد مثّل الإمام علي عليه السلام دور الأنبياء في تحقيق العدالة ورفع راية الحق ، لقد عاش مع الشعب وأدرك ما يعانيه هذا الشعب من المسؤولين والحكام ، لقد قرع سمعه أنين المظلومين والإجحاف بحقوق الفقراء والمساكين ، فلذا أعلنها ثورة على الظلم والظالمين ، ثورة لا تنتهي بنظره إلا بالقضاء على الجذور التي خلقت الظلم وأعانت الظالمين .. وقد كان مصداق ما أقول من سيرة الإمام ما روكته كتب التاريخ :

فقد تقدم المغيرة بن شعبه ينصح الإمام بإبقاء معاوية على الشام .. يقول ابن عباس :

دخلت على الإمام - وكان عنده المغيرة بن شعبه - فجلست حتى خرج ، ثم دخلت عليه فسألني وسألته ، ثم قلت له : ما قال لك الخارج من عندك آنفاً ؟ قال : قال لي قبل هذه الدخلة : أرسل^(١) الى عبدالله بن عامر بعهد على البصرة

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ٤٨ .

وإلى معاوية بعده على الشام ، فإنك تهدىء عليك البلاد وتسكنّ عليك الناس ، ثم أتاني الآن فقال لي : إني كنت أشرت عليك برأي لم أتعقبه فلم أرَ ذلك رأياً ، وإني أرى ان تنبذ إليهما العداوة فقد كفأك الله عثمان ومهما أهون مؤونة منه .

فقال له ابن عباس : أما المرة الاولى فقد نصحك فيها ، وأما الثانية فقد غشك فيها .

وكان الإمام عليه السلام قد أجاب المغيرة بالرفض المطلق لفكرة إبقاء معاوية على الشام ، إنه يعرف من هو معاوية ، وقد وقف الإمام على الطريقة القيسرية التي يسير عليها وإلى الشام ، إنه يرى إمعانه في الجور والظلم دون رقيب أو حسيب ، لقد اطلقت يده في أمور أهل الشام يتصرف كما يحب ويريد ، دون وازع من دين أو رادع من ضمير .

فقد ذكر ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة : ان معاوية قال لجريز — وكان قد أرسله الإمام إلى الشام ليأخذ له البيعة من معاوية — : إني قد رأيت رأياً ، قال جريز : هات ، قال : اكتب إلى علي ان يجعل لي الشام ومصر جباية فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده في عنقي بيعة واسلم إليه هذا الأمر وأكتب إليه بالخلافة .

وقد ردّ الإمام الجواب إلى جريز ، وكان من جملة :

« وقد كان المغيرة بن شعبة أشار عليّ وأنا بالمدينة أن أستعمله — معاوية — على الشام فأبیتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضللّين عضداً . . » .

إن علياً — لو أراد ان يدهان في الحق ويُقرّ الجور ولو لبضعة شهور — لاستعمل معاوية على الشام ، ولكنه (علي) صاحب المبادئ والمثل ، إن وظيفته كراع للحق ومشرع للناس ، يتنافى مع إقراره لمعاوية وإبقائه على الشام ولو للحظات من الزمن فضلاً عن الشهور .

هذه سيرة علي عليه السلام ترفض التعامل مع الظالمين وإن كان في التعامل معهم

مصلحة شخصية لملي نفسه ، إنه خط الرفض للظلم بل الإجهاز عليه ، ولو أدّى ذلك الى الحرب والقتال وإراقة الدماء .

أعلن الإمام بصراحة فائقة النظر عدم مهادنته للظلم مهما كانت عواقب ذلك ونتائجها عليه ، فقد رجع الى الكوفة بعد معركة النهروان وأخذ يبحث أصحابه للجهاد وملاقاة أهل الشام ، فكانوا يتباطؤون عن إجابته ويلوذون في بيوتهم ، فقام عندها بعض اصحابه إليه قائلاً :

يا امير المؤمنين ، اعطِ هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي من يتخوف خلفه على الناس وفراقه ، إن هذا هو الذي كان يصنعه معاوية بن أتاه ، وإنما عامة الناس همهم الدنيا ولها يسقون وفيها يكدحون فاعطِ هؤلاء الأشراف ، فإذا استقام لك ما تريد عدت الى أحسن ما كنت عليه من القسم .

هذا هو الدواء الناجع في نظر هذا الإنسان ، فلذا أبدى نصحه للإمام وتوقع منه ان يجور فيفاضل بين الناس ولو في العطاء لبعض الوقت ، لقد تخيل ان هذه الطريقة وإن كانت جائرة يجب على الإمام ان يقوم بها ، لقد نسي مقام علي ومهمته ، إنه ليس حاكماً كسائر الحكام الذين يعتلون عرش الخلافة فيماخذون منها حاجتهم ويشبعون رغباتهم ثم ينزلون عنها لغيرهم ، لقد نسي ان الإمام دوراً عظيماً رائداً هو تأسيس وتركيز المسئل الاسلامية والإصرار على الحق والعدالة مهما كانت الظروف والمعوقات ، فلذا أجابه الإمام بكلمة غراء ستبقى دستوراً لكل الشرفاء من الحكام الذين يحبون تحقيق العدالة ويصبون إليها ، قال له الإمام :

« أتأمروني ان اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من المسلمين ؟ فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم ، والله لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وهي أموالهم ؟ » .

العدل في الرعية والقسم بالسوية دون محاباة لشريف او طمع في نصره قوي ،

كانت سيرة الأنبياء وعليها سار علي لا يعدوها ولا يتجاوز عنها ، فلذا بقي في سجلّ الخالدين الى يوم الدين .

بل إذا أردت شاهداً أجلى من ذلك يؤكد إصرار الإمام وإيمانه بالعدالة ، فما عليك إلا أن تلقي بنظرك نحو سيرته المباركة لتدرك عمق تعلّقه بهذا المبدأ الاسلامي العظيم ، إنه يرفض عرش الخلافة الاسلامية الذي يمثل أعظم سلطة في البلاد ، إنه يرفض هذا المقام إذا تضمن ما يخالف الحق والعدل ، فلذا نرى انه عندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف البيعة شريطة ان يسير بسيرة الشيخين أبي الإمام قبولها بهذا الشرط ، لأنه على علم بالمفارقات التي حصلت بين سيرتي الرجلين ، فقد حصل كثير من الوقائع خالف الثاني فيها الأول ، بل هناك أخطاء صدرت من كل منهما ، فكيف يرضى علي بالبيعة ويُقرّ الخطأ والانحراف ؟ إن علياً نفسه هو الحق ومعه الحق ، فأعماله وأقواله هي الحجة وبها يدان الله فكيف يتبع غيره في سيرة غير صحيحة ولا سليمة وعلي أحق بالاتباع ؟ ما قيمة الخلافة إذا لم تدفع باطلاً او تحق حقاً ؟ إنها تصبح شهوة من شهوات الحكم واستطالة على رقاب العباد والبلاد ، وهذا يتنافى مع المبادئ التي يؤمن بها علي ويضحي من أجلها ، فلذا يحدث ابن عباس قال : دخلت على امير المؤمنين عليه السلام بندي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي ^(١) : ما قيمة هذا النعل ؟

فقلت : لا قيمة لها .

فقال عليه السلام : والله لي أحب إليّ من إمرتك إلا ان أقيم حقاً او أدفع باطلاً .

هكذا يرى علي عظمة العدالة وقيمتها ، إنها فوق جميع الاعتبارات الشخصية والميول النفسية ، إنها من أجل الحق ولأجل رفع الظلم عن كاهل المظلومين والمضطهدين ، فهل لهذا الإمام نظير او مثيل ؟ من ادعى ذلك فقد افترى وعجز عن الإتيان بالنظير .

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ، ج ٣ ص ١٨٥ .

الفصل الرابع

زهد الامام علي عليه السلام

أحرف مضيئة في سماء المجد

زهد وتكشف وعزوف عن الدنيا كانت تلك سيرة علي عليه السلام ، لا حياءً بالزهد لنفسه بل ليهون على الفقير ما هو فيه من المسكنة والحاجة ، فالفقير عندما يرى إمام المسلمين في جشوبة عيشه وخشونة ملبسه ، تسكن نفسه ويخفف ذلك من آلامه ومتاعبه ، إنها خلاصة زهديات علي عرفها النبي صلى الله عليه وآله يعلم الغيب والشهادة ، فصاغها بأحرف من نور نطق بها لتكون علامة فارقة للإنسان امتاز عن سائر البشر .

إنها الكلمات المضيئة التي تنير الدرب للسالكين وتكون محطات أمان لمن استلمهم معناها واسترشد بهداها .

أكرم بكلام رسول الله وحديثه ، إنه الواحات الخضراء المعشوشبة في دنيا الظلام والجفاف ، ففي تلك الربوع يجد الإنسان الهداية والرشد ويأمن بها مزالق الطريق وعثراتها ، فإلى رسول الله تُشدُّ الرحال ، وعلى أعتابه وأعتاب أهل بيته تتطلع الأجيال .

بلتغ محمد رسالة ربه وأدّاها أحسن ما أدّاها من قبله من الأنبياء والمرسلين فأوضح السبل والمناهج وعيّن القادة والقيّمين من بعده ، فكان علي أول تلك الحلقة المباركة ومبدأ اشتقاقها .

لقد امتاز علي عليه السلام بكل صفات الكمال وفاز بها بتفوق كبير جعلت من رسول الله صلى الله عليه وآله لساناً يفصح عن ذلك ويلهج به ، وكان لزهد صلوات الله عليه وعزوفه عن الدنيا رغبة في الآخرة ومواساة للفقراء ، أثر واضح في حياته قبل خلافته وبعدها ، مما جعله إمام الزهاد وأرقى العباد .

وهذه بعض الكلمات المضيئة في زهد علي عليه السلام وتقصفه :

١ - عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي : إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إليه منها وهي زينة الأبرار عند الله : الزهد ^(١) في الدنيا ، فجعلك لا ترزأ ^(٢) من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووصب ^(٣) إليك المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ویرضون بك إماماً .

٢ - قال عليه السلام :

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه .. ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه .. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرأ ولا ادخرت من غنائمها وفرأ ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ولا حزت من أرضها شبراً .

٣ - قال عليه السلام :

ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ، ولكن هيئات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر

(١) ذخائر العقبى ، ص ١٠٠ .

(٢) ترزأ : تصيب .

(٣) وصب : أدام .

الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة مَنْ لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ..
أو أبيتُ مبطاناً وحوالي بطون غرثى وأكباد حرثى ؟ ..!

٤ - قال عيسى بن علي :

والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها ، ولقد قال لي
قائل : ألا تنبذها عنك ؟ فقلت : اغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى .

علي الزاهد

لقد وضع علي بسيرته أعظم الاسس التي عليها تشاد أعظم الأفكار وأعلامها في دنيا الزهد والتقشف ، هذا هو الزهد الإسلامي وليس الزهد الصوفي المتقوقع القذر الذي انحرف أصحابه عن جادة الحق والهدى ، وتخيّلوا أموراً يبرأ الله منها ورسوله كمن يدعي إن الله في جيبه ، أو ان الله قد حل فيه أو غيرها من الإدعاءات الباطلة التي تدل على سفه أهلها وضلالهم وقلة بضاعتهم في طاعة الله ورسوله ، فكانوا عالة على المجتمع وضريبة ثقيلة ممقوتة وجرائم فساد .

إن علياً مثل الزهد الإسلامي الشريف الذي يحضّ عليه الشارع خصوصاً ، ممن كان في مركز القيادة ، وكان قادراً ومبسوط اليد لتناول الطيبات وما تشتهيه النفس وتلذه العين .

إن زهد علي هو الباب الواسع والمدخل الرئيسي الذي يستطيع الإنسان سلوكه دون أن ينحرف عقائدياً أو يضل فكرياً وسلوكياً ، إنها دعوة إلى الحد من الإسراف في الطيبات وتوفير بعضها ، إنها دعوة للاقتصاد في الملبس من أجل غاية هي أسمى ، إنها غاية أجل وأسمى من الطعام والشراب والملبس ، إنها غاية من أجل جعل النفس شفافة تنظر إلى الناس ، وخصوصاً المعمدين منهم فتلمس نفوسهم ببعض تلك المتع وتدق على قلوبهم بأوتار المحبة التي تدفع هذا الإنسان كي يعيش آلامهم ويتحسس واقعهم فيرفق بهم ما أمكنه ذلك وسمحت له الظروف .

إن هذا الزهد الإسلامي هو مفتاح الخير لجعل الإنسان يحس بحاجة أخيه الإنسان ، فيندفع يؤثره على نفسه فيجوع ليُشبع غيره ويسغب من أجل أن يرفع حاجة إنسان، إنه يلبس ما خشن من أجل أن يوفر لأخيه شيئاً من متع الحياة.

إن عملية الزهد هي ترفع عن حطام الدنيا من أجل الآخرة ، فهو يملك كل الأشياء ولا يملكه شيء ، إن من يملك بعض حطام الدنيا ، ثم لا تسخو نفسه بها على الفقراء والمساكين ، مثل هذا الإنسان ليس مالكا للمال ، بل المال هو المالك له ، فلذا لا تسخو نفسه بشيء منه ، ولا يستطيع أن يُخرج درهماً من جيبه إلا وتكاد أن تخرج أنفاسه معه . إن مثل هذا الإنسان لا يستحق الحياة لأنه عبد مملوك للدرهم والدينار وحطام هذه الدار .

لقد وضع الإمام أسس الزهد والتنسك بسلوكه وسيرته ، ولعل أبلغ نقطة نكتشف بها شخصية ما نشره في نهجه ، وما خطب به فوق منبره وزهد فيه أهل عصره ، فاسمعه واملأ نفسك من حديثه وعش معه بضع لحظات ، وفكّر في هذه الكلمات لترى سمو هذا الرجل وسر عظمته .

إن خطب الامام تمثل الروح التي تعيش فيه فكرباً وعقائدياً، وقد انعكس ذلك على سلوكه ، فلم يكن هناك أدنى انفصال بين الفكرة والسلوك ، بين الشعار والتطبيق ، بين القول والعمل ، إنها الوحدة المنسجمة مع ذاتها ومع صفاتها فألى جولة مع زهد الامام كما في نهجه .

ألا وإن لكل مأموم إماماً :

يقول الامام في رسالته لابن حنيف عامله على البصرة ، وقد دعي إلى مأدبة أقامها له رجل من فتية أهل البصرة فسمع الامام بذلك ، وعلم أن هذه الوليمة لم يُدع لها أهلها من الفقراء والمساكين وأهل المتربة ، وإنما دعي إليها الأغنياء والوجهاء وأهل الدنيا فحسب دون أن يشركهم فيها غيرهم ، فقد كان لهذه الوليمة شأن كبير عند الامام استدعت منه أن يكون كتاباً أخلاقياً رائعاً لعماله

ولكل الناس في عصره، وفي جميع العصور يتبين فيه أعظم الاسس التي يقام عليها الزهد والتقشف ، وتضع اعلاماً واضحة ودلالات ظاهرة على نسك علي وزهده يقول عليه السلام في ذلك الكتاب :

أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت إنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم بحفو وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه قالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه .

هذه فقرات من ذلك الكتاب إنها نظرة الامام الكبيرة التي يتطلع فيها إلى اليوم الذي يعيش المجتمع بأفراده مع الضعفاء والفقراء ، ويحس فيه الأغنياء والوجهاء وأصحاب المسؤولية بحاجة هؤلاء المستضعفين والفقراء فيوجهون كل جهدهم من أجل رفع الاضطهاد عنهم وإعانتهم في حياتهم ، إنه الحس الداخلي والمسؤولية التي ألقاها الله على كاهل الامام ، فكيف يرى هذا المجتمع بما فيه من فقر وفاقة ، ثم يغمض عينيه سادلاً دونه ستراً وحجاباً ، بل نفس علي الكبيرة تتحرى كل فرد في المجتمع لتؤمن له متطلباته وتوفر له احتياجاته .

إن الامام قد سمع بهذه الوليمة ، إنها دعوة للوالي الذي نصبه علي على البصرة ، وللوالي في نظر علي شأن غير شؤون الناس يجب عليه أن يلتفت إلى الامور من زاوية المسؤولية التي تحمّل ثقلها ورشح نفسه لرفعها ، ولذا ترى إن علياً يتصفح وجوه المدعوين ليرى هل من المناسب أن يستجيب هذا العامل للدعوة الموجهة إليه أو يرفض الاستجابة ، فإن كانت وليمة ذات طابع إنساني إسلامي تنظر إلى عباد الله من المحتاجين والفقراء وأهل المسكنة ، فهي الوليمة التي يرغب الامام في إقامتها ، ويحبب في الاستجابة لصاحبها ، أما إذا كانت وليمة تتضمن خلفيات ممقوتة ، وتحتوي على انحراف في نظرة صاحبها ، إذا كانت وليمة لأجل رضا الوالي الجديد واكتساب وده ، أو لظهار ان صاحبها من الوجهاء ، إن كانت لأجل الأغنياء والوجهاء وذوو المكانة العالية ، دون أن

يكون للفقراء وأهل المترتبة والمساكين حظ منها، فهي وليمة يترفع الامام وتبعاً له ولاته يترفعون عن الاشتراك فيها والقرب منها .

ثم يشرح الإمام وضعه وهو في منصب الخلافة والقيادة يشرحه إلى ابن حنيف كي لا يغتر هذا الوالي ويغتتم الفرصة في الحصول على الملذات والشهوات التي يوفّر لها منصبه كوالٍ ، فيقول عليه السلام :

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ومن طعمه بقرصية ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد ، فوالله ما كنتُ من دنياكم تبرأ ، ولا أدرت من غنائمها وفرأ ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبيرة ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقررة .

إن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ، هذه هي القاعدة العامة ، فإن الأئمة تختلف وتتنوع ، فمنهم أئمة حق وهدى كالأنبياء والمرسلين والعظماء من خدمة الإنسانية ، ومنهم أئمة كفر وضلالة كعماوية ويزيد وولاء الأمويين ، من الأئمة أئمة يدعون إلى إعانة الضعفاء والفقراء والمحتاجين ، وهؤلاء أئمة خير ورحمة ، ومنهم أئمة يدعون إلى سحق الطبقات الضعيفة والمعوذين ، وهؤلاء أئمة الانحراف والطاغوت .

من الأئمة من يُعلم الناس الشره والنهم ويفتح بطنه لكل ما يشتهيه ، فلا يهيمه غير نفسه ، ولا يشعر أنه أمام مسؤولية يجب القيام بها ، فهو لا ينظر إلا من زاويته الخاصة التي ملكت عليه كل تفكيره وتصرفاته .

هذه هي حالة الأئمة على وجه الإجمال ، وهناك يأتي دور الاتباع الذين يختارون أئمتهم ، فمنهم من يختار أئمة الهدى ، الأئمة الذين يدعون إلى الله وإلى إعانة الفقراء فيعيشون آلام المعوزين والمحتاجين ، وتذوب نفوسهم عند رؤية فقير أو مسكين ، فيحاولون يجهدهم سدّ عوزه ورفع حاجته ، فيبيتون طاوين

من أجل توفير الحياة الأفضل لغيرهم ، ويبذلون أقصى جهودهم من أجل رفع الحيف والجور عنهم . ومن الأئمة من تشغله أكل الطيبات ، وقد صور الإمام صورة الخليفة الذي تقدمه بقوله : إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ، إلى أن انتكث عليه قتله واجهز عليه عمله وكبت به بطنته . إنها الصورة المعبرة عن تمتع هذا الإنسان بما كله ومشربه ، دون أن يكون له اتجاه أو همة غير ذلك ، وتبعاً له سارت أتباعه ، سار بنو أمية كما سار إمامهم ، فكانت النتيجة الطبيعية التي يتوصل إليها حسب هذه المقدمات .

ومن هنا أراد الإمام أن يبين لابن حنيف طريقته في الحياة ، وزهده في الملذات ، وإن أكبر همه ليس إلا في توفير رغد الحياة لجميع المسلمين ، فلذا تراه يعرض صورة لنفسه وهو خليفة المسلمين يعرضها على ابن حنيف كي يقتدي به ويسير على منهاجه عاذراً له ، إن لم يستطع أن يعيش كما عاش علي نفسه من جميع الجهات ، ولكن إذا لم يستطع أن يمثل الإمام ويقتدى به في كل أعماله وتصرفاته وزهده ، فليس معنى ذلك أن يترك ما يتمكن من الاقتداء به ، فعليه أن يقتدي به حسب الإمكان ، وبقدر ما تتحمله قدرته ويطيعه عزمه . إنها صورة معبرة عن واقع الإمام المعاش ، إنها صورة رسمت بريشة الإمام نفسه ، وهو أعلم الناس بها فهو يقول :

«ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ومن طعمه بقرصية» . إنها الدنيا ملك يديه ، فقد بسط سلطان ولايته على سائر الأقاليم الإسلامية باستثناء ما كان من بلاد الشام حيث يقيم طاغية الأمويين .

إنه خليفة المسلمين وعنده الصلاحيات الواسعة التي بها يستطيع أن يلبس أفخر الثياب وأجملها ، وأحسن أصنافها وأجودها ، هذه الدنيا بسعتها وما فيها من أرزاق وأموال وثياب وطعام ، اكتفى منها علي بقرصية وطمرية ، إنه منتهى الزهد والتقشف ، وغاية ما يمكن أن يصل إليه إنسان ، بل أقسم في إحدى

خطبه قائلاً : وایم الله - یمیناً استثنی فیها بمشیئة الله - لاروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً ، وتقنع بالملح مأدوماً .

ما أكبرک وأعظمک یا أمیر المؤمنین الدنیا ملک یدیک وأنت فی أعلى منازل الحکم ، ومع کل هذا تتنازل عن متع الحیاة کلها ، وترفع عن حطام هذه الدنیا ، إنها نفس علویة فی مرتقی الکمال وأعلى منازل العروج نحو الله ، إن علیاً لا یحرم ذلك علی نفسه ، ولا یحظره علی غیره ، وإنما یرید من نفسه ومن الناس أن یکونوا أصحاب شعور جیاش وإحساس بحاجة المحتاجین والفقراء والمساکین فلا یتمتعوا بطیب الحیاة وحو لهم البطون الغرثی والأفواه الجائعة التي تحن إلى القدما یمقول علی نفسه : ولو شئت لاهتدیت الطریق إلى مصفی هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ، ولكن هیئات أن یغلبنی هواي ویقودنی جسمی إلى تحذیر الأطمعة ، ولعل بالحیجاز أو الیامة ، من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبیت حبطاناً وحولی بطون غرثی وأکباد حرى .

إن علیاً یمتدی الطریق إلى مصفی هذا العسل ، وهو شیء طیب للنفس تهواه ویروق لها ، وكذلك لباب القمح بدل الشعیر المطحون ، إنه یمستطیع الوصول إلیه ، ولكن هل هذه هی سیرة الامراء الصالحین الذین یمتحنون برعیتهم ویسهرون من أجل صالحهم ، إن علیاً یفصح عن السبب الداعی إلى عدم ذلك ، إنه یمفکر بمن هو فی أطراف دولته ، یمفکر فی البلاد النائية البعيدة عن أنظاره المتوارية خلف الافق ، لعل فی أطراف تلك البلاد من لا یعرف الشبع ، ولا یطمع أن تصل یداه إلى قرص یسد به جوعته ، إنها نفس علی وتفکیره یدفعانه دائماً إلى أن یمفکر بهؤلاء البعیدین عنه ، إنهم اناس مثله ، والله ولایه علیهم وهو مسؤول عنهم ، فکیف یمتتع بشيء یفوق ما علیه رعیته ، أن الواجب یدعوه لیمتساوی مع أدنائهم فی المعیشة .

وهل یقنع علی بهذا المنصب ویکتفی أن یمقال له أمیر المؤمنین ، ولا یمشارك رعیته مکاره الدهر وجشوبة العیش ، هذا ما أبانه علی حیث قال :

أقنع من نفسي بأن يقال : هذا أمير المؤمنين ، ولا اشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة معها علفها أو المرسلة شغلها تكممها تكثرش من اعلافها وتلهو عما يراد بها أو أترك سدى أو أهمل عابثاً أو أجزر حبل الضلالة أو اعتسف طريق المتاهة .

ويقول : أمتلىء السائمة من رعيها فتبرك وتشبع الربضة من عشبها فتربض ويأكل علي من زاده فيهجع قرّت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية .

هكذا يشرع علي قانون الحاكم والمحكوم ، ويضع ميزاناً لرئيس الدولة ، فعلى الشعب أن يحاسب هذا الحاكم ، وأن يقف في وجهه عند انحرافه عن هذا الخط أو يبتعد عنه إلى غيره .

إنه خط واحد وهو المساواة بين الحاكم والمحكوم ، فليس للخليفة سلطة أزيد مما جعل الله له من الحق ، بل عليه المسؤولية أكبر وأضخم ، وحسابه أشد وأعسر إذ بيده أسباب الرفاه ، وعليه أن يرفع الظلم ويحقق المساواة ، فإذا كان الجور والنهم يسيطران على نفسيته وأعماله ، فكيف يستطيع أن يفرض على الناس المساواة والايثار والعدل ، وكيف يضمن نجاح خطته في نشر مبادئ الحق والعدل وإقامة نظام الحياة الكامل .

إن علياً يفكر بأولئك الذين اعيتهم السبل فباتوا صفر اليدين ، فهو لا يأكل إلا ما يأكله ضعاف الناس وفقرائهم ، ولا يلبس إلا ما يلبسه فقراء المسلمين ومساكينهم ، وهذا يتضح بشكل ظاهر من خلال أقوال علي وأفعاله ، فهذا هو يقول وقد طوبل باستبدال مدرعته فقال : والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها ، ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها عنك؟ فقلت : أغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى .

بربك فكثير في هذا الرجل العظيم ، وحلل هذه الكلمات التي بين يديك ،

وقد عبّر بها علي عن واقعه الذي يعيشه ، وعن حاله التي هو عليها ، إنه أمير المؤمنين ويحتل المرتبة الاولى بين المسلمين ، وله الحق أن يلبس كما يلبس أو اسط الناس ، فلا يلبس أفخر الملابس من الحرير والحلل السندسية ، ولا يلبس الثياب المرقعة البالية ، فعلى الأقل يحق له أن يكون كالكثر الغالبة من المسلمين ، ولكن مع هذا يرفض الإمام إلا أن يعيش كأضعف المسلمين وأفقرهم ، إنه يملك هذه المدرعة ، لا يملك غيرها ، وقد رقعها حتى استحي من راقعها ، ولكن هذه المدرعة المرقعة قد لفّت أظفر نفس بشرية وأسمى روح إنسانية ، إنها ضمت إمام العدل والهدى وأعظم الناس وأكملهم ، لقد لفّت هذه المدرعة منتهى الكمال البشري ومفخرة الإنسانية ، إن لهذه المدرعة شأن تعتز به الإنسانية ، ويتمنى المجتمع منذ غيابها إلى الآن ، أن تعود إلى الحكام الذين لم يقتدوا بصاحبها ، فلم تنفعهم تلك الثياب الحريرية الناعمة المخاطة بخيوط الذهب والفضة .

لقد خلدت مدرعة علي المرقعة ، بينما فنيت ثياب الامراء والخلفاء من بعده ، ولم يبق لها أثر ، لأن مدرعة علي جمعت خيوطها من كد علي وجهوده وضمت جسده الطاهر ونفسه الكبيرة التي عاشت من أجل الله والناس ، وماتت في سبيل الله وهي تحمل هموم البائسين والفقراء ، بينما ثياب الحرير والاستبرق التي يرفل فيها الامراء ، كانت من أموال الشعب فقراهم ومساكينهم وأراملهم وأيتامهم ، فحق لمدرعة علي أن تخلد بخلود علي وحق لثياب الامراء المصنوعة من الذهب والحرير أن تفنى وتزول ، لأن أصحابها سرقوا أموال الناس واعتدوا على حقوقهم وكرامتهم ، ولم يفكروا بحالة البؤساء والمساكين .

إن علياً صاحب النفس الكبيرة لا يتأثر بمدرعته المرقعة ، ولا تحجب هذه الرقع التي فيها ، ما لنفسيته الكبيرة من طهر وقدسية وشفافية وروحانية ، إن كل رقع فيها ستفنى في نفوس الفقراء والمساكين حبة لعل وإكباراً له وتعظيماً لشخصيته العظيمة ، إذ من أجلهم رقعها ولتوفير الحياة السعيدة لهم ، لم يستبدلها فهل هناك أزهى من علي في هذه الدنيا ، إنه الزهد الإسلامي الذي يحض عليه الإسلام ويرغّب فيه .

الدنيا في نظر علي

لم يكن للدنيا من علي حظ ولا نصيب ، لقد تمكنت أن تصطاد بشراكها خلقاً كثيراً ولكنها عجزت عن علي ، إذ كان من الرعيل الذي كُشِفَ له النقاب فأدركها على حقيقتها وُهتِكَ الستر له فرأى وجهها الطبيعي كما هو واقعها ، لم تغرره محاسنها ولم تُبلِّه مشتبهاتها ، فقد وقف منها موقف الخصم العنيد وانتصر عليها بإرادته وقوته وعزمته .

إن علياً نظر الى الدنيا نظرة من لا يستقر فيها ولا يخلد ، إذ لم يُخلق لها بل أُخلق لأجل الآخرة ، وما الدنيا في نظره إلا دار ممر لا دار مقر ، بينما الآخرة هي دار القرار ، وإذا كانت هذا هو الواقع وقد أيقن به علي ، فما عليه إلا أن يكون في هذا الممر كأشرف إنسان يشتغل في الدنيا لصالح الآخرة ويعيش فيها ليكتسب ما يؤهله في الآخرة لأرفع الدرجات وأعلى المرتقيات . . فاسمع لبعض موافقه منها حيث يقول عليه السلام :

أيها الناس ، إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقرم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتكم .

ويقول عليه السلام :

وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما وراءها شيئاً ، والبصير ينفذها

بصره ويعلم أن الدار وراءها ، فالبصير منها شاخص والأعمى إليها شاخص ،
والبصير منها متزوّد والأعمى لها متزوّد .

ويقول عليه السلام :

عباد الله ، اوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم ، وإن لم تحبوا تركها
والمبلىة لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها ، فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها
ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها ، فإن عزها وفخرها
إلى انقطاع وإن زينتها ونعيمها إلى زوال ، وضرّاؤها وبؤسها إلى نفاذ .

إن علياً صلب كل قدرته الهجومية على هذه الدنيا التي لا تدوم ، وقد كانت
في نظره أحقر من أن يهتم بها أو يعمل لها ، كيف يكون لها في قلب علي مقدار
ذرة من الحب وهو الذي صوّرها بأبشع صورة وأقبحها ، صورة تنفر منها
الطباع وتشمئز من رؤيتها النفوس ، إنها صورة ممسوخة أصيبت بأفبح الأمراض
وأشدّها عدوة وتنفيراً . . . لقد صوّرها الإمام كما في إحدى خطبه بقوله :

« والله لدنيا كم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجزوم » .

وهو الذي طلّق الدنيا ثلاثاً لا رجعة فيها ، إنها طلاق بائن لا بأسف عليها
، ولا يتمسّر ، قد طلّقها وهي ملك يديه وهو في أوج مجده وعظمته ، فقد
خاطبها بقوله :

« اغربي عني ، فوالله لا اذلّ لك فتستدلينني ولا اسلس لك فتقوديني ، وإيم
الله يميناً استثنى فيها بمشيئة الله لاروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا
قدرت عليه مطعموماً وتقنع بالملح مأدوماً » .

هذه وقفة لعلي من الدنيا وما أكثر وقفاته معها ، إن له معها جولات
ومحاورات ، لقد نفّر عنها كل من صالحت نفسه وحكّم عقله وضميره ، فقد
وعظ أصحابه وحذّرهم منها وعرفهم شرّها وخيرها وما تنطوي عليه أيامها
ولياليها ، وقد خاطبها الإمام أكثر من مرة وبألحان مختلفة ، فما هو يخاطبها

٤١ - كتاب اليقين : للسيد ابن طاوس ، عن محمد بن العباس ، عن محمد بن همام بن سهيل ، عن محمد بن إسماعيل العلوي ، عن عيسى بن داود النجار ، عن موسى ابن جعفر ، عن آبائه عليهم السلام في حديث المعراج قال أوحى الله تعالى إليه : هل تدري ما الدرجات؟ قلت : أنت أعلم ياسيدي ، قال : إسباغ الوضوء في المكروهات ، والمشي على الأقدام إلى الجومات ، معك و مع الأئمة من ولدك ، و انتظار الصلاة بعد الصلاة الخبر (١) .

و رواه الشيخ حسن بن سليمان في كتاب المحتضر نقلاً من تفسير محمد بن العباس مثله (٢) .

بيان : لا يخفى أن هذا الخبر مع جهالته إنما يدل على أن الجمعة مع النبي والأئمة من ولده عليهم السلام أتم وأكمل وأدخل في رفع الدرجات ، لا الاشتراط بقريضة ضمه مع المستحبات سابقاً ولاحقاً .

٤٢ - مجمع البيان : عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى « خذوا زينتكم عند كل مسجد » قال : أي خذوا ثيابكم التي تزينون بها للصلاة في الجومات والأعياد (٣) .

٤٣ - كتاب سليم بن قيس : قال أمير المؤمنين عليه السلام : الواجب في حكم الله و حكم الاسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل ، ضالاً كان أو مهدياً أن لا يعملوا عملاً ولا يقدّموا يداً ولا رجلاً قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة ، يجبي فيئهم ويقيم حجّهم و جمعتهم ، و يجبي صدقاتهم الخبر (٤) .

(١) اليقين في أمرة أمير المؤمنين : ٩٠ في حديث .

(٢) راجع ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(٣) مجمع البيان ج ٤ ص ٤١٢ .

(٤) كتاب سليم : ١٦١-١٦٢ .

كان والله أبو الحسن كذلك ، فكيف صبرك عنه يا ضرار (١) ؟ قال : صبر من ذبح واحدها على صدرها فهي لا ترقى عبرتها ولا تسكن حسرتها .. ثم قام وخرج وهو بالكبر .

فقال معاوية : أما إنكم لو فقدتموني لمّا كان فيكم من يشني عليّ هذا الشئاء .

فقال بعض من حضر : الصاحب على قدر صاحبه .

هذه هي نظرة علي إلى الدنيا ، إنها نظرة واحدة انسجمت مع يقينه وما وصل إليه من حقائقها وانكشف له من واقعها ، وقد بقيت هذه النظرة حتى آخر أيام حياته ، فقد أوصى لولديه الحسن والحسين لما ضربه ابن ملجم (لعنه الله) بقوله : اوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منكم زوي عنكما ، وقولا الحق واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصما والمظلوم عوناً .

(١) البحار ج ٤١ ص ١٢١ ، ابن أبي الحديد ج ١٨ ص ٢٢٥ .

نعم للزهد .. لا للرهبنة

الإسلام دين الحياة الخالد ورسالة السماء التي لا فناء لها ولا اضمحلال ، إنها الاطروحة الخاتمة التي استجمعت في تشريعاتها كل مقومات السعادة والرفاهية لهذا الإنسان ، إنه التشريع الذي صدر من الله جلّ جلاله ، من الحقيقة المطلقة التي خلقت هذا الإنسان وعلمت ما يصلحه مما يفسده وما يسعده مما يشقيه وما يأخذ بيده تصعيداً نحو الكرامة والعزة مما يضعه ويشده الى الذلّ والهوان ..

إن هذا الإسلام ليس نتاج عقل بشري محدود مؤطر بأطر الزمان والمكان وخاضع للعوامل النفسية والأمزجة البشرية التي تتغير وفقاً لعواطف هذا المخلوق عن ذاك وتختلف من إنسان لآخر .

إن هذا الإنسان تتحكم فيه نزعاته الشخصية وعوامل تربيته وتتدخل في تشريعه — لو أراد ذلك — مصلحته التي تتوافق مع رغباته وشهواته التي هي تتغير من إنسان لآخر ، مضافاً إلى قصوره الذاتي الناشئ عن إمكانه المحدود الذي لا يسمح له أن يستكنه ذاته ويدخل إلى مسارب النفس البشرية ومنعرجاتها ومتغيراتها ، إنه يقف أمام ذاته عاجزاً عن تفسيرها مُقرّاً بقصوره معترفاً أنه أمام مجهول لا يقف منه على نتيجة ولا يحصل على مطلوب ، بينما الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان هو أعرف بما يصلحه وأدرى بالذي به تكون سعادته ورفاهيته ، فلذا أرسل الرسل وشرع الشرائع وأنزل الكتب ، وقد كان الإسلام

هو الرسالة الخاتمة التي جاءت بما يكفل سعادة الإنسان ويوفر له جميع متطلباته التي تستجد أو تتطور .

نزلت رسالة الإسلام على قلب أشرف إنسان ، إنها روح محمد التي عطسرت هذه الحياة وشرفت الأحياء ، فقام بتبليغها إلى الناس بمخاديرها مؤدياً لها أبلغ أداء وأحسنه ، ثم قام من بعده ورثته وأهل بيته الأئمة المعصومين من ذريته ، فكانوا حراس هذه الشريعة وأمناء هذه الأمة وحفظة هذا الدين ، لقد سهروا على الإسلام ومن أجله ، وقدموا أنفسهم في سبيله ، فأرشدوا الضال وهدوا التائه وردوا المنحرف . وإن هذه الرسالة لا تؤخذ إلا من أهلها ، ولا يعتمد في تفسير مضامينها ونظرياتها إلا على الذين هبطت في بيوتهم ، واختارهم الله أمناء عليها ، فلذا ترى كيف أن بعض من لم يهتم بالإسلام في نفوسهم ، ولم يقفوا في استجلاء الغموض على اعتاب أهل بيت رسول الله ، كيف انحرفوا عن الخط المستقيم ؟ فانحرفوا نحو الإفراط تارة والتفريط أخرى ، واستعانوا بما يبرء الإسلام منه ، ولا يعترف بشرعيته ، وقد وقف الأئمة موقفاً متشدداً منهم إذ أنكروا تلك البدع ، وجأهروا بردها واستخفوا بمن جاء بها حتى جعل القياس علم ألسنتهم محققاً للشريعة والدين ، وشبه من استعمل القياس بابليلس ، إذ كان اللعين هو أول من قاس إذ قال : خلقتني من نار وخلقته من طين .

ومن جملة المفاهيم التي ساء فهمها من قبل بعض المسلمين ، ولم يستوعبوا مدلولها على حقيقته مفهوم الزهد في الدنيا ، فقد تخيلوا أن الزهد عبارة عن لبس الثياب البالية والاعتزال عن الناس والتعبد لله بالصلاة والصيام ، دون التدخل في شؤون الحياة وما تعجّب به من مشاكل وأحداث ، إنهم تخيلوا أن الزهد هو أن يكف المرء نفسه عن الزواج ، ولا يدنو من متع الحياة وملذاتها ، بل عليه أن يسد باب داره أو يعتزل في صومعة ويتوجه إلى الله هكذا ساء فهم هذا المفهوم الإسلامي وقد وقع في زمان الإمام قضية أوجببت عليه أن يتدخل بنفسه لتوضيح هذا المفهوم وبيان وجه الحق فيه .

دخل الإمام على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعودده ، فلما رأى سعة داره قال : ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة : تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم ، وتطلع منها الحقوق مطالعها ، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة . فقال له العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد .

قال : وما له ؟

قال لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا .

قال علي : عليّ به فلما جاءه قال :

يا عديّ نفسه لقد استهام بك الحبيث ، أما رحمت أهلك وولدك ، أترى الله أحل لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة ما كلك .

قال : ويحك إني لست كأنت ، ان الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبيح بالفقير فقره .

فهذا مفهوم خاطيء قد ارتكبه بعض أصحاب الامام ، فبادر عليه السلام يبيّن له الحقيقة ويحلي له الأمر بأن الزهد ليس في اعتزال الحياة وترك الأهل والولد يتكفّفون على الأبواب يستجدون لقمة العيش بالصدقة والعطية ، بل الانسان الشريف في نظر الاسلام ، هو الانسان الذي يكافح من أجل نفسه وعائلته ومن أجل الناس والمجتمع ، فهذا لسان الحق يصدر عن أهل الحق من أهل البيت حيث يقول : (الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله) أو يقول : (نعم العون على تقوى الله الغنى) .

إن هذا الانسان قد تخيّل أن الزهد عبارة عن الرهينة التي ابتدعها المنحرفون من قساوسة المسيحية التي تعتبر عن رفض هذه الدنيا ، والتخلص منها بالابتعاد

عن الحياة والاحياء إلى الصوامع ورؤوس الجبال طلباً للوحدة التي تصلهم بالواحد
الأحد ، فكأن الحياة الدنيا والمسؤوليات التي في دروبها تقتنافي مع القرب من الله
والانس به ، فلا زواج ولا متعة ولا لذة ، إنها كلها أمور محرمة في رأي الرهبان
وأفكارهم ، إن فلسفة الرهبنة ومنطلقاتها الفكرية تقوم على أساس يخالف فكرة
الزهد وفلسفته في الاسلام ، إن نظرة الراهب إلى الدنيا نظرة سلبية نظرة
المدو اللدود إلى عدوه الذي لا يمكن التخلص منه إلا بالابتعاد عنه واعتزاله ،
إنها نظرة مشوّهة نحو الدنيا حيث لا علاج لها في نظر الراهب إلا بالهروب منها
والتنكر لها ولسكانها ، فلا لقاء مع الدنيا لمن أراد الحياة الآخرة ، فلذا يعيش
الراهب في صومعته بعيداً عن الناس وعن المجتمع يتكفف وجوه الناس وينتظر
عطاءهم وفضلات زادهم ، ينتظر أن تمنّ عليه أيدي غيره ليقيم صلبه ويواصل
تهجده لربه .

وأيّن هذا من الزاهد ، فإنه ينظر إلى الآخرة ، وإنها هي الهدف والغاية ،
ولكن هذا الهدف وهذه الغاية لا يمكن الحصول عليه إلا بمقدار ما يقدمه في
الدنيا من جهاد وخير وعمل صالح ، إنه يحب العمل ويعده المصدر الشريف
لكسبه ، يعده جهاداً يحقق له الأجر والثواب وأرفع الدرجات ، إن كانت نيته
من أجل شيء شريف ، ان قصد به كفّ نفسه وعائلته عن الحاجة إلى الناس .

إن الزاهد رجل يغالب الحياة فيسمى فيها ويجاهد من أجل أن يرفع عن ذي
حاجة حاجته وعن فقير فقره ، إنه رجل يكافح ويكدح ليحصل على الأموال
فيؤثر بها غيره ويقدمها لأصحاب الحاجة والفاقة من الأرامل والأيتام والمساكين
وأبناء السبيل ، إنه رجل يقتر على نفسه ، فلا يطلق لها العنان في الشهوات
والملاذات من أجل أن يوفرها لغيره من أبناء المجتمع الذين لا حظ لهم بها ولا
عهد لهم بامثالها .

وإن علي بن أبي طالب مع ما كان فيه من سعة المال ، إذ كانت تأتيه نفقته

من غلته بينبع ، فكان ^(١) يطعم الناس منها الخبز واللحم ، ويأكل هو الثريد بالزيت ، إنه علي يؤثر غيره من أبناء مجتمعه ، فيجمعهم على موائد اللذيذة ، ويحرم نفسه من أجلهم ، إنه كان يمثل القيادة الاسلامية الواعية التي استوعبت عمق الاسلام وسعته ، كان يمثل أروع الأنبياء وأعظمهم يمثل رسول الله خاتم المرسلين محمد ، إنه كان في مأكله يمثل ضعاف الناس وفقرائهم ، بل أفقر الناس وأضعفهم .

يقول سويد بن غفلة : دخلت على علي عليه السلام بالكوفة ، فإذا بين يديه قعب لبن أجد ريحه من شدة حموضته ، وفي يده رغيف يرى قشار الشعير على وجهه وهو يكسره ويستعين أحياناً بركبته ، وإذا جاريته فضة قائمة على رأسه ، فقلت : يا فضة أما تتقون الله في هذا الشيخ ؟ ألا تخلتم دقيقه ؟ فقلت : إنا نكره أن تؤجر ونأثم نحن ، قد أخذ علينا أن لا ننخل له دقيقاً ما صحبناه ، وكان علي لا يسمع ما تقول ، فالتفت إليها فقال : ما تقول ؟ قالت : سله فقال لي : ما قلت لها ؟ قال : إني قلت لها : لو تخلتم دقيقه ؟ فبكى ثم قال : بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثاً متوالية من خبر بر حتى فارق الدنيا ، ولم ينخل دقيقه — يعني رسول الله .

فرسول الله وبعده علي كانوا أزهّد الناس من أجل الناس من أجل فرد في أقصى بلاد الاسلام ، لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالقرص ، وكيف يجلس علي على مائدة مملوءة بالطعام الدسم والأصناف المتنوعة ، وهناك من رعيته من يكابد ألم الحياة ومرها ، ويجاهد ليحصل على كسيرات خبر يسد بها رمقه فلا يجدها ، إنه علي الذي عاش من أجل المجتمع والناس وآثر الآخرة على الدنيا ، فأعطاه الله الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

وفي ختام الحديث عن علي يتبين لنا أنه القائد الرسالي الذي كان أشجع الناس وأعلمهم أعدلهم وأزهدهم ، وهذه الصفات هي أهم ما يجب أن تتوفر في

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠ .

القيادة الصالحة لتولي أمور الناس ، وبذلك يتحقق شروط وليّ الأمر التي حددها الامام بقوله : (ان احق الناس بهذا الأمر اقواهم عليه واعلمهم بأمر الله فيه ..) . فإن القائد إذا كان اشجع الناس واعلمهم ثم اعد لهم وازهدهم ، فالخلافة له وحده دون سواه ، ممن فقد ذلك وأخذ يستجدي الحلول من غيره او كان جشعاً متكالباً على الدنيا او جائراً حائداً عن طريق الحق والصواب ، فلا يستحق الخلافة وليس له نصيب منها ، وصدق الله تعالى حيث قال : (افمن يهدي إلى الحق احق^(١) ان يتبع امن لا يهدي^(٢) إلا ان يهدي ، فما لكم كيف تحكمون) .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطاهرين .

(١) يونس : ٣٥ .

الفهرس

١٠٧	علي وعلم التفسير	٥	كلمة لا بد منها
١١١	معجزة البيان عند علي	١١	ربيب النبي
١١٧	علي وعلم النجوم		الفصل الأول : شجاعة الامام
١٢١	علي والطاقة الكهربائية	٢٣	مقتطفات من كلام الامام
١٢٣	حكم البغاة عند علي	٢٥	ليلة الفداء
١٢٥	الامام والرياضيات	٣٢	دور الامام في معركة بدر
١٢٧	الامام علي وعلم النحو	٣٨	دور الامام في معركة أحد
١٢٨	علي والقضاء	٤٩	دور الامام في فتح خيبر
١٣٠	اضرب رقبة العبد منها	٥٢	دور الامام في غزوة الخندق
١٣٤	الله أكبر ١٣١ - علي وعلم الغيب	٥٥	دور الامام في حرب الجمل
١٣٥	أخباره بمقتل ميثم التمار	٦٤	دور الامام في معركة صفين والنهران
١٣٧	أخباره باستشهاد رشيد الهجري	٦٤	موقف الامام من حرب البغاة
١٣٧	أخباره بقتل قنبر مولا	٦٥	معركة صفين
١٣٨	أخباره بفاجعة كربلاء عند المرور بها	٦٦	معاوية وعمرو بن العاص
١٣٩	أخباره بظهور معاوية	٦٦	عمرو بن العاص وخادمه وردان
١٤١	أخباره باستشهاد حجر	٦٨	مهر الدخول في الحرب ضد علي
	الفصل الثالث : عدل الامام	٦٩	معاوية وخطبه الدنيئة
١٤٧	مقتطفات من العدل في صوت علي	٧٤	علي وأصحاب الجباه السود
١٤٩	قضية العدالة عند الامام	٧٤	أصحاب الامام وموقفهم من القتال
١٦٠	علي وعقيل ١٥٨ - عقيل ومعاوية	٧٩	اختيار الحكيم ٧٧ - الأشر والصحيفة
١٦٣	الخلافة في نظر علي	٨٠	الخوارج بذرة الشيطان
١٦٦	علي وعياله	٨٢	تجاوزات الخوارج
١٧٢	وقفات على اعتاب العدل العلوي	٨٤	مواقف بطولية للامام
١٧٨	ليني امرأة من العرب	٨٦	مواقف مذلة لأخصامه
١٨٠	للعدل .. لا للمصلحة الشخصية		الفصل الثاني : علم الامام علي
	الفصل الرابع : زهد الامام	٩٣	شذرات من كلام النبي والصحاب في علم الامام
١٨٧	أحرف مضيئة في سماء المجد	٩٩	رجوع الخلفاء إلى الامام
١٩٠	علي الزاهد	٩٩	رجوع أبي بكر إلى الامام
١٩١	ألا وإن لكل مأموم إماماً	١٠٠	رجوع عمر إلى الامام
١٩٨	الدنيا في نظر علي	١٠٢	رجوع عثمان إلى الامام
٢٠٢	نعم للزهد .. لا للرهبنة	١٠٤	تلميح الرحي والنسبة

